بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

بهاء الدين بن شداد ..
المؤرخ ، الأديب
(سنة ٥٣٩ - ٦٣٢هـ)

عميد كلية الدراسات العليا

وفاء سعيد شهوان

إشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية

نيسان / ١٩٩٥ م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربّنـــا ..

آتِنا من لَدُنكَ رحمةً

وهيئ لنـا ..

مِن أمرنـا رشـداً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٢/ ٤ /١٩٩٥ م ، وأجيزت .

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
١ - الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم (مشرفاً)	
٢ - الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة (عضواً)	
٣ - الدكتورة عصمة غوشة (عضواً)	

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــداء

إلى .. مَن تعيش ذكراه في قلبي دائماً .. إلى روح أبي

إلى .. أغلى من في الوجود .

وأصدق ما في الوجود .

وأحبّ إليّ من كل الوجود ... إلى أمي

إلى الذين منحوني الحنان والأمان في أقسى الظروف وشاركوني الفرح والبهجة في أحلى الأيام ..

إلى .. أخواتي زينب وميسون وسوزان وفضيلة

إلى القمة .. أخي الأستاذ الدكتور يوسف

إلى الذكرى ومعنى الصبر .. إلى زوجي عزمي كل العرفان والوفاء والتكريم

إليهم جميعاً أقدم أجر هذا العمل

الباحثـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكـــر وتقديـــر

مع نهاية دراستي العليا ، لا يسعني إلا أن أقدم عرفاني بالجميل ، وأن أرفع جزيل شكري وامتناني إلى أستاذي الكريم الدكتور محمود إبراهيم ، الذي كان الرسول المعلم والأب الحاني .. طوال إشرافه على هذا البحث .

وأخص بالشكر أيضاً الأستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة ، والدكتورة الفاضلة عصمة غوشة لتفضلهما بالاشتراك في مناقشة هذا البحـــث .

وفي نهاية هذا المشوار .. وفي نهاية موسم الحصاد .. نتوقف قليلاً ونحني رؤوسنا إجلالاً واحتراماً ومحبة للقلوب الكبيرة التي ما بخِلَتْ في تقديم العون والمساعدة والإرشاد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويـات

الموضـــوع	الصفحة
- قرار لجنة المناقشة	ب
- الإهـداء	ج
- شكر وتقدير	د
- فهرس المحتويات	هـ
- فهرس الأعـلام	ح
- فهرس البلدان	ك
- فهرس الأماكن	م
- الملخص باللغة العربية	ن
توطئةتاريخية	١-١٩
الفصل الأول «حياته»	٢٠-٤٦
- اسمه ونسبه وكنيته	٢٠-٢٣
- نشأته	٢٣-٢٤
- ثقافته	٢٤-٢٧
- شيوخه	٢٧-٣٥
- تلاميذه	١-٣٥
- تنقلاته وأعماله	٣٥-٣٩
- منزلته	٣٩-٤١
- علاقته بالسلطان صلاح الدين	٤١-٤٥
- وفاته	٤٥-٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني « كتبه » ٤٧-٨٩

- الكتب التاريخية الأدبية
  - «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ٥٠-٧١
- الكتب الدينية :
  - «دلائل الأحكام» ٧١-٧٨
  - «دروس في الحديث» ٧٩-٨٢
  - «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» ٨٢-٨٤
  - «الموجز الباهر» ٨٤-٨٥
  - «فضائل الجهاد» ٨٥-٨٧
  - «كتاب العصا» ٨٧-٨٨
- كتب التراجم
  - «أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي» ٨٨-٨٩

الفصل الثالث « الخصائص الفنية » ٩٠-١٢٤

- التأثر بالقرآن الكريم والحديث الشريف ٩١-٩٧
- التأثر بالشعر ٩٧-٩٩
- الزخارف البديعية ٩٩-١٠٥
- الصور البيانية ١٠٥-١٠٨
- اللغة والأساليب ١٠٩-١٢٤
  - أسلوب الدعاء ١١٨-١١٩
  - أسلوب الخطاب ١١٩-١٢٠
  - أسلوب القصص ١٢١-١٢٣
  - الصدق الموضوعي والصدق الفني ١٢٣-١٢٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة ١٢٥-١٢٧

ثبت المصادر والمراجع ١٢٨-١٣٧

الملاحـــق ١٣٨-١٤٣

- ملحقٌ مصورٌ لبعض المدارس والبيمارستانات ١٣٩-١٤٠

- ملحقٌ مصورٌ للمدن التي تعرضت للغزو في مصر والشام ١٤١-١٤٣

الملخص باللغة الانجليزية ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأعـــلام

(ا)

- ابن الأثير : ص ١٠
- ابن بري : ص ١٠
- ابن الجوزي : ص ١٣
- ابن الحاجب ، ص ١٣
- ابن الخطيب ، ص ٩
- ابن خلكان ، ص ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٨٥
- ابن الزكي ، ص ١٢
- ابن الساعاتي ، ص ١٥
- ابن سناء الملك ، ص ١٥
- ابن الشهيد ، ص ٨
- ابن الشيرجي ، ص ٢٤
- ابن الطرابلسي ، ص ١٥
- ابن العديم ، ص ٣٤
- ابن عساكر (الحافظ) ، ص ٩
- ابن عينين ، ص ١٥
- ابن قسيم الحموي ، ص ١٤
- ابن القيسراني ، ص ١٥
- ابن واصل ، ص ١٣ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٦
- (أبو الرضا) ابن القاسم الشهرزوري ، ص ٢٥
- أبو إسحاق الشيرازي ، ص ٨٩
- أبو شامة المقدسي ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٦٨
- أبو نصر الشيرازي ، ص ٣٥
- الملك الأفضل ، ص ٨٧
- أسد الدين ، ص ٥٣ ، ٥٦

(ب)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- البغدادي ، ص ٤ ، ٥ ، ١٤
- بلمظفر نضر ، ص ١٢

(ج)

- الجيّاني ، ص ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩

(ح)

- الحنبلي ، ص ٩
- حيص بيص ، ص ٢٦

(ر)

- ريتشارد قلب الأسد ، ص ٦٣

(ز)

- الزواوي ، ص ١١

(س)

- السديد ، ص ١٣
- السمعاني ، ص ٩
- السلفي (الحافظ) ، ص ٣ ، ١٧
- سليم بن أيوب ، ص ١١

(ش)

- الشاطبي ، ص ١٢
- شاور ، ص ٥٦
- شريح بن هانئ ، ص ١١٦
- شمس الدين بن المقدم ، ص ٤١
- الشهرزوري (كمال الدين) ، ص ١١

(ص)

- الصنهاجي ، ص ٢٩

(ط)

- الطوسي ، ص ٢٤ ، ٢٩

(ظ)

- الملك الظاهر (غياث الدين) ، ص ٣٦ ، ٥١ ، ٦٤ ، ١١٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الملك الظاهر غازي ، ص ١٤

(ع)

- عزالدين بن شداد ، ص ٤٨
- عزالدين (عماد الدين عثمان) عبدالسلام ، ص ١١
- الملك العزيز ، ص ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٩
- الملك العزيز ولد الملك الظاهر ، ص ٣٨
- علم الدين قيصر ، ص ١٣
- عمادالدين الأصفهاني ، ص ٥ ، ١٠ ، ١٥
- عمادالدين ، ص ٢

(ف)

- القاضي الفاضل ، ص ٥ ، ٨ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٩ ، ٤٥

(ق)

- القفطي ، ص ١٦
- القيسراني (خالد بن محمد) ، ص ٥ ، ١٥

(ك)

- الكندي ، ص ١٠

(ل)

- لبابة بنت الحارث ، ص ١١٦

(م)

- الملك المظفر تقي الدين ، ص ١٣
- المنذري ، ص ٢٢ ، ٤٥

(ن)

- ملك النحاة ، ص ١٠
- منقذ (أسامة) ، ص ١٠ ، ١٤ ، ٣٨
- نورالدين ، ص ٢ ، ٥ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ١٥ ، ٣٦ ، ٥٦
- النووي ، ص ١٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس البلـــدان

(ا)

- الاسكندرية ، ص ٣ ، ١٧ ، ٥٧
- انطاكية ، ص ٥٨
- انطرطوس ، ص ٥٨ ، ٦٠

(ب)

- برزيه ، ص ٥٨
- بعلبك ، ص ٢ ، ٢٩ ، ٥٣
- بغداد ، ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥
- بكاس ، ص ٥٨
- بيت جبرين ، ص ٦٠
- البيرة ، ص ٦٠
- بيروت ، ٥٧

(ح)

- حلب ، ٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٨ ، ٨٣
- حماه ، ص ٢ ، ٣٣
- حمص ، ص ٢

(د)

- دربساك ، ص ٥٨
- دمشق ، ص ٢ ، ٧ ، ١٧ ، ٣١ ، ٤١ ، ٥٧ ، ٦٤
- دمياط ، ص ٥٧

(ش)

- شقيف أرنون ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(ص)

- صفد ، ص ٥٨

(ط)

- طبرية ، ص ٥٧

(ع)

- عسقلان ، ص ٤٤ ، ٥٧

- عكا ، ص ١٢ ، ٦٢ ، ١١٩

(ق)

- القاهرة ، ص ٦ ، ٨ ، ١٦ ، ٧٩

- القدس ، ص ٦ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٥٨ ، ٦٠

(ك)

- الكرك ، ص ٦٠

- كوكب ، ص ٥٨ ، ٨٢

(ل)

- اللاذقية ، ص ٥٨ ، ٦٠

(م)

- مصر ، ص ١٧ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٥٦ ، ٥٧

- المغرب ، ص ٢٦

- مكة ، ص ٢٩ ، ١١٨

- الموصل ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ، ٢

(ي)

- يافا ، ص ٦٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأماكـــن

(ب)

- البيمارستان النوري ، ص ٨

(ت)

- التربة الأشرفية ، ص ٣٢

(ج)

- الجامع الأموي ، ص ٧

(خ)

- الخانكة البهائية ، ص ٣٧
- الدار الأشرفية ، ص ٣٢

(د)

- دار الحديث (التي بناها بهاءالدين بن شداد) ، ص ٩ ، ٣٧

(م)

- المدرسة الدخوارية ، ص ٨
- المدرسة الشافعية ، ص ٣٦ ، ٣٧
- المدرسة الصلاحية ، ص ٦ ، ٤٢
- المدرسة الفاضلية ، ص ٨
- المدرسة الناصرية ، ص ٦
- المدرسة النظامية ، ص ٢٥
- المدرسة النورية الصغرى ، ص ٢
- المدرسة النورية الكبرى ، ص ٢
- المسجد الأقصى ، ص ١٦ ، ٨٢
- مكتبة القصر الفاطمي ، ص ١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الملخـص

بهاء الدين بن شداد .. المؤرخ ، الأديب (سنة ٥٣٩-٦٣٢هـ)

وفاء سعيد شهوان

إشـــراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

تناولت الرسالة شخصية «بهاءالدين بن شداد» المؤرخ الأديب ، عاش في العصر الأيوبي ، وكان ملازماً للسلطان صلاح الدين الأيوبي بل كان صديقه وكاتم سره والمساعد الشخصي له ، وقد عمل بهاءالدين دوراً كبيراً في تلك الفترة ، لا سيما بعد وفاة السلطان «صلاح الدين» .

ويتألف البحث من ثلاثة فصول ، ومقدمة تاريخية ، تحدثت فيها عن الجو الثقافي الذي عاش فيه القاضي «بهاءالدين» ودوره فيه ، لا سيما أنه مدرس ، وعرضت لحال المدارس والمكتبات والرحلات والمساجد ، وذكرت دور العلماء والأدباء والفقهاء والقضاة في ازدهار هذا الجو .

في الفصل الأول ، قدمت ترجمة كاملة للقاضي «بهاءالدين» ، فذكرت مولده ، ونسبه وثقافته وشيوخه ، وتلاميذه ، ومنزلته ، وتنقلاته ، وعلاقاته ، وركزت على علاقة «بهاءالدين» بـ «صلاح الدين» ، ثم ذكرت تاريخ وفاته .

وفي الفصل الثاني ، قدمت فيه شيئاً عن مؤلفات «بهاءالدين» ، حيث أثبتُ عددها ، وحققت نسبتها ، وعرضت لمحتواها ، وذكرت قيمتها وأثرها فيما لحقها ، وبخاصة كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لكون البحث يرتكز عليه كثيراً ، ويعرّفنا بـ «بهاءالدين» المؤرخ الأديب .

وفي الفصل الثالث ، عرضت للخصائص الفنية ، تلك لتي ظهرت عامة في ذلك العصر وتأثر «بهاءالدين» بها لا سيما الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وتحدثت عن البديع والبيان وعن اللغة والأسلوب . ومن خلال مناقشة تلك الأمور حددت شخصية الكاتب الأدبية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي النهايـة ، كتبت الخاتمة ، وعرضت فيـها لأهم النتائج التي تمخض عنها البـحث ، وكان من أهمـها أن بهاءالديـن استطاع تصـوير حيـاة السلطان «صلاح الدين» الإنسانيـة والحربيـة من خلال كتابـة «سيـرة صلاح الدين» مما ميّـز الكتاب وجعله من أهـم المصادر.. إن لم يكن مـن أولى المصادر التاريخيـةالتي يمكن الاعتماد عليـها في مـعرفـة السلطان «صلاح الديـن» وفي مـعرفـة عصـره . وألحقت البـحث بخـريطة مـصـورة عن المدن التي تعـرضت للغـزو الصليـبي في مـصـر والشام ، وببعض الصور الخاصة بالمدارس والبيمارستانات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التوطئة التاريخية

الثقافة زمن صلاح الدين الأيوبي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التوطئة التاريخية
الثقافة زمن صلاح الدين الأيوبي

ازدهرت العلوم والآداب في عهد الزنكيين والأيوبيين ، وامتدت الحركة الثقافية وتشعبت رغم الحروب القاسية التي خاضها المسلمون .

ولقد أدرك الزنكيون والأيوبيون أن الثقافة والعلم أساس التقدم والازدهار ، ولذا شجعوا العلماء وقرّبوهم واعتمدوا عليهم ، ويكفي للدلالة على ذلك أن الجهاز الإداري لدولة «عماد الدين» كان يضم نخبة من الفقهاء الذين كان يستفتيهم قبل إقدامه على كثير من الأعمال [١] ، وكان مجلس «نورالدين» «لا يُذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين ، والمشاورة في أمر الجهاد» ، «وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم ، فيأخذ ما يُفتونه» [٢] . كما زاد الاهتمام بدور العلم ، فكثرت المدارس المنظمة بحلب ، وبعلبك ، وحماة ، وحمص ، وزاد الاهتمام أيضاً بالمساجد [٣] ، فقد أنشأ نور الدين مدارس خاصة به وسميت باسمه ، واختصت في أغلبها بتدريس الحديث الشريف ، ومنها المدرسة النورية الكبرى التي أسست سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وقد وصفها «ابن جبير» خلال زيارته دمشق فقال : « إنها قصر من القصور الأنيقة ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً» [٤] .

والمدرسة النورية الصغرى ، ولكنها خاصة بالحنيفية [٥] ، كما أنشأ أيضاً في «حماه» مدرستين الأولى للحنيفية والثانية للشافعية ، وأنفق عليها الأموال

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د. جمال الشيال ، ط ٢ ، القاهرة ، ج١ ، ص٤١ ، ص ٤٢ .

(٢) بدرالدين ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق د. محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٣٢ ، ٥٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ص ٢٥٦ .

(٥) النعيمي الدمشقي ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر حسني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ص ٦٤٨ ، ٦٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجليلة [١] ، وكانت «بلاد الشام خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء » [٢] .

واستمرت الحركة الفكرية الثقافية في التقدم ، فهذا السلطان - رحمه الله - «صلاح الدين» شديد الكلف بالعلم والعلماء ، وقد عُرف عنه حبه لسماع القرآن الكريم ، يقول في ذلك صديقه وملازمه «بهاءالدين بن شداد» : «كان يحب سماع القرآن الكريم ، حتى إنه يستخير إمامه ، وكان يشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن متقناً لحفظه» [٣] .

وكان «صلاح الدين» - رحمه الله - شديد الرغبة في سماع الحديث ، «ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر مجلسه ، استحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان الشيخ ممن لا يَطرق أبواب السلاطين ، ويتجافى عن الحضور في مجالسهم ، سعى إليه وسمع عليه ، فقد تردد إلى الحافظ السلفي * بالاسكندرية وروى عنه أحاديث كثيرة [٤] .

وكان السلطان - رحمه الله - يحب أيضاً قراءة الحديث بنفسه ، يقول ابن شداد : « وكان رحمه الله يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) - أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، دار الجيل ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٤ .
- ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٥ .

(٣) بهاءالدين بن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ط ١ ، الدار المصرية للتاليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣١

* وهو ، أبو طاهر ، الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد السلفي ، أحد الحفاظ المكثرين ، عالم بالاسكندرية ، قصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله ، كان مغرماً بجمع الكتب ، توفي سنة ٥٧٦هـ .
انظر : - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، إحسان عباس ، دار الفكر ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٠٥ ، ١٠٧
- العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ط ٢ ، دار الميسرة ، بيروت ، ٧٩م ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .

(٤) ابن شداد ، النوادر ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مرّ بحديث فيه عبرة رقّ قلبه ودمعت عينه » [١] .

كما كان حريصاً أيضاً على مجالسة العلماء ومناقشتهم ومشاركتهم في أبحاثهم ، التي تعتبر مظهراً بارزاً من مظاهر النشاط الفكري والثقافي والاجتماعي ، يقول البغدادي * : « وأول ليل حضرته ، وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم وهو يحسن الاستماع والمشاركة ويتفقه ، ويأتي بكل معنى بديع » [٢] .

ولم يكن مجلسه يخلو من « ذوي فضل ، وأولي نباهة ونبل ، يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد ، ويهزون لمكارمه أعطاف المحامد ، فتارة في أحكام شريعة ومسائل فقهية ، وآونة في صناعات شعرية وألفاظ عربية ومعان أدبية ، ومرّة في أحاديث الأجواد وشيم الأمجاد » [٣] .

وكان « صلاح الدين » - رحمه الله - حريصاً على صحبة العلماء حيث « كان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار ، وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه » [٤] .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

* وهو الشيخ الفاضل ، موفق الدين أبو محمد بن عبداللطيف ويعرف بابن اللباد ، موصلي الأصل ، بغدادي المولد ، اشتهر باللوم وتحلى بالفضائل ، كثير التصنيف ، متميز في النحو واللغة ، عارف بعلم الكلام والطب .

انظر : - شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣٢ .

- ابن أبي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، ط ٢ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ص ٦٨٣ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٨٨ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن بالغ احترامه وتقديره للعلماء والفقهاء والأدباء ، أن وصل بهم إلى مكانة عظيمة حتى أصبح كل منهم مسموع الكلمة ، محترم الرأي والمشورة ، وقد حفل بهذا الاحترام والتقدير الزنكيون من قبل ، فهذا «خالد ابن محمد بن القيسراني ، من كبار كتّاب القرن السادس الهجري ، استكتبه نور الدين : «ورفعه واصطنعه ، وبلغ منه مبلغاً من الأمر كأنه أشركه في الملك معه» [١] .

وفي عهد الأيوبيين ، أصبح «القاضي الفاضل» وزيراً ومشيراً ، غير أنه كان كذلك قاضياً وكاتباً وأديباً وقد «ركن السلطان صلاح الدين إليه ركوناً تاماً وتقدم عنده كثيراً» [٢] .

والقاضي «بهاءالدين بن شداد» أيضاً ، كان كاتماً للسر ، وإماماً للعسكر ، وهو مؤرخ وأديب وفقيه ومحدث ، وقد وصل به الأمر ، أن أصبحت : «بيده حل الأمور وعقدها ، ولم يكن لأحد معه في الدولة كلام» [٣] .

وكذلك كان السلطان حريصاً على بناء المدارس ، فقد بذل جهداً كبيراً في تشييدها ، حتى صارت مصر وغدا القطر الشامي موئلاً للعلماء ، وكان منهم «العماد الأصفهاني» ، و«ابن شداد» ، و«البغدادي» وينقل «ابن أبي أصيبعة» في تشجيع السلطان للعلماء وإكرامهم كعادته هذا القول على لسان البغدادي «كتب لي صلاح الدين ديناراً في كل شهر على ديوان الجامع ، وأطلق أولاده رواتب ، حتى تقرر لي في كل شهر مئة دينار» [٤] .

وقد كانت الدولة تنفق على المدارس بسعة ، يقول أبو شامة : «إن نورالدين كان يوقف في كل سنة ما مقداره ثلاثون ألف دينارعلى المدارس وأئمتها

---

(١) العماد الأصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٥م ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٨ ، ص ١٦٢ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩١ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومدرسيها وفقهائها» [١] ، وكان السلطان صلاح الدين ينفق أيضاً على المدارس إنفاقاً كبيراً ، يقول ابن جبير واصفاً «المدرسة الناصرية» التي أمر ببنائها السلطان صلاح الدين عند قبر الإمام الشافعي بالقاهرة ، «إنها مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناءً ، يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، .... والنفقة عليها لا تحصى» [٢] ، وقال السلطان «صلاح الدين» لأحد المشرفين على بنائها : «زد احتفالاً وتأنقاً وعلينا القيام بمؤنة ذلك» [٣] .

كما عَمّر السلطان «صلاح الدين» «المدرسة الصلاحية» * بالقدس وتولى التدريس بها القاضي «بهاءالدين بن شداد» [٤] ، ومدارس أخرى متفرقة ومختلفة وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها [٥] .

كما كانت الدولة تؤمن للمدرسين إقطاعاً وراتباً يكفيهم مؤنة عيشهم ويوفر لهم حياة كريمة ، فهذا «نورالدين» : « كان يقرب العلماء ويباسطهم ويتواضع لهم، وإذا أقبل عليه أحدهم يقوم له مذ تقع عينه عليه ، ويعتنقه ويجلسه معه على

---

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦ .
- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٢٨٢ ، ٢٨٤ .
- ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٩ .

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

* أسسها صلاح الدين ، سنة ٥٨٨هـ -في هذه السنة تم إنشاؤها- وجعلها مدرسة للشافعية ، من اشهر مدارس القدس الإسلامية وأطولها عمراً وأقدمها ، وتقع عند باب الأسباط ، وكان أول من تولى مشيخة الصلاحية القاضي بهاءالدين بن شداد .
انظر : - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٢٠٧ .
- الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٠ .
- كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، ص ٥٤ .
صورة المدرسة الصلاحية في الملحق .

(٤) - ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤ .
- كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، جمعية المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨١ ، ص ٦٦ .

(٥) - ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٥٥ .
- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٩٣٦م، ج٦ ، ص ٥٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سجادته ، ويقبل عليه بحديث ويبالغ في إكرامه والإحسان إليه »[١] وكان دائماً « يجري على المعلمين الجرايات أو الخيرات الوافرة »[٢] .

وأما عن السلطان « صلاح الدين » فقد جاء كتاب بهذا الخصوص يقول : « ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار ، بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار »[٣] .

كذلك كانت توفر الدولة الظروف المستقرة المناسبة لطالب العلم ، يقول ابن جبير : « ومن مناقب هذه البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يغدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه ، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه »[٤] وهؤلاء المدرسون كانت دروسهم موسوعات تجمع كل شيء ، وكانت المدارس في ذلك العصر معاهد للتعليم العالي ، وجامعات تُدرَّس فيها العلوم المختلفة ، وكانت تلحق هذه المدارس بمساجد تعقد فيها حلقات العلم .

وللمساجد دورها المميز ، كحال الجامع الأموي بدمشق ، فإنه كان يزهر بحركة علمية نشطة في كل زاوية من زواياه « فلا تخلو القراءة منه صباحاً ومساءً ، وفيه حلقات لتدريس الطلبة ، وللمدرسين فيه إجراء واسع »[٥] ، ونشطت حركة الوعظ فكان الوعّاظ « يذكرون الناس بأمور دينهم ويبينون لهم الحلال والحرام ، وقد شجّع الحكام الوعّاظ على ممارسة نشاطهم في عقد مجالسهم والاستماع لهم »[٦] .

---

(١) مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

انظر : قصة قطب الدين الشافعي مع نورالدين في نفس الصفحة .

(٢) الكواكب الدرية ، ص ٣٩ .

(٣) كرد علي ، خطط الشام ، المطبعة الحديثة ، دمشق ، ١٩٢٥م ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ١٥ .

(٥) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٤٤ .

(٦) ابو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الجملة ، يقول ابن جبير عندما وصف دمشق : «إنها مفخرة من مفاخر الإسلام ... ، فيها عشرون مدرسة ومارستانان * » [١] ، وعليه ، فقد ظهرت مدارس متخصصة تدرس الطب ، مثل «المدرسة الدخوارية» التي أنشأها «مهذب الدين عبدالرحيم بن حامد» ** في سنة ٦٢١هـ [٢] .

وكانت هذه المدارس الطبية تمد المارستانات بمن يتخرج من طلبتها الذين أحكموا أصول صنعة الطب ، وتميزوا في علمها وعملها .

ولم تكن هذه البيمارستانات أماكن للاستشفاء وحسب ، وإنما كانت أيضاً معاهد يُعلم فيها الطب ، حيث يأتي إليها الأطباء والمشتغلون للمباحثة ، وتلقي العلم والمناقشة ، كما هو الحال في البيمارستان الذي كان في دولة «نورالدين» بدمشق *** ، وقد جعل «نورالدين» أمر الطب فيه «لابن الشهيد» الذي توفي عام ٥٧٠هـ ، وكان هذا بعد الانتهاء من تفقد المرضى ومعرفة أحوالهم ، يحضر الكتب الطبية ، ويأتي جماعة من الأطباء والمشتغلين ، وتجري المباحثات الطبية والاشتغال والنظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات [٣] .

كذلك شارك العلماء السلاطين والأمراء في النهضة العلمية ، فلقد بنى «القاضي الفاضل» مدرسة له سماها باسمه في القاهرة ، ونقل إليها بعض كتبه

---

* البيمارستان ، المستشفى ، وهي كلمة فارسية مكونة من لفظين «بيمار» بمعنى مريض ، و«ستان» بمعنى مكان .
انظر : محيط المحيط ، مؤسسة جواد للطباعة ، لبنان ، ١٩٨٣م ، ص ٦٤ .

(١) ابن جبير ، ص ٢٥٥ .

** وهو ، عبدالرحيم الدمشقي ، شيخ الطب ، ولد سنة خمس وستين وخمسمائة ، انتهت إليه معرفة الطب، وصنّف التصانيف ، وحُظي عند الملوك ، ولما جاوز سن الكهولة أصابه طرف من خرس ، قال عنه ابن أبي أصيبعة : «كان أوحد عصره وفريد دهره وعلامة زمانه» .
انظر : النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٢) النعيمي ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

*** انظر التصوير الميداني للبيمارستان النوري في الملحق .

(٣) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٥ .
- النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ، ص ١٣٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت كثيرة [١] ، والقاضي «بهاءالدين بن شداد» أيضاً ، من آثاره دار الحديث ، التي أنشأها في حلب إلى جانب مدرسته وأوقف عليها وقفاً كثيراً [٢] .

كما ظهرت حركة قوية في ميدان التأليف قفزت بالعصر إلى عالم فكري ثقافي واسع ومتنوع ، فظهرت كتب تحرض على قتال الكفار وتحث على الجهاد وترغّب فيه ، مثل كتاب «فضائل الجهاد» «لبهاءالدين بن شداد» وقد ألفه خصيصاً للسلطان «صلاح الدين» ، يقول ابن شداد : «وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد ، وقد أُلّفت له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً» [٣] ، كما كتب الحافظ «ابن عساكر» * كتاب «الجهاد» وكتاب «أربعون حديثاً في الحث على الجهاد» [٤] .

وظهرت كتب أخرى تذكر أخبار الشجعان في عهد الرسول والصحابة ، وتذكر مناقب الخلفاء الراشدين ، مثل كتاب «منهج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين» للحنبلي (ت ٦٢٠هـ) ، وكتاب «مناقب الإمام الشافعي» لابن الخطيب (ت ٦٠٦هـ) ، وكتب أخرى تذكر فضائل البلدان الإسلامية مثل كتاب «فضائل الشام» للسمعاني (ت ٥٦٢هـ) [٥] .

---

(١) - أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .
- النعيمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٨٩ .

(٢) - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص
- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٨٩ ، ٩٠ .
- الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط ١ ، المطبعة العلمية ، حلب ، ١٩٢٥م ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ . وفيه وصف دقيق لدار الحديث والمدرسة .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

* وهو ، أبو القاسم علي بن أبي محمد بن هبةالله المعروف بابن عساكر ، الدمشقي ، الملقب ثقة الدين ، من فقهاء الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لا يتفق لغيره ، كان حافظاً ديناً ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، صاحب التاريخ الكبير، ت ٥٧١هـ ، «تاريخ دمشق» .
انظر : - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٩ ، ٣١١ .
- الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

(٤) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب أرناؤوط ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ج ٢٠، ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

(٥) انظر : الأنساب ، تحقيق عبدالرحمن البياني ، بيروت ، ج ١ ، ص ٢٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واشتهرت أيضاً كتب السير والتراجم ، فكان كتاب ، وكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) [١] ، وكتاب «الفتح القُسي» و«البرق الشامي» للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) [٢] ، وكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» (ت ٦٣٢هـ) ، وكتاب «الروضتين في أخبار الدولتين» لأبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) [٣]، كما نضج علم التاريخ ، وألفت فيه كتب ضخمة مثل كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر (ت ٥٧١هـ) ، وكتاب «الكامل» لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) [٤] .. وغيرها .

كما بدأت حركة لغوية نحوية نشطة ، هدفها المحافظة على اللغة وسلامتها ، لا سيما أن هذا العصر كان فيه اختلاط مع الأجناس الأخرى ، بفعل الحروب والظروف السياسية المحيطة . وكان من علماء اللغة ، النحوي الذي عُرف باسم «ملك النحاه» [٥] . وابن برى [٦] ،

---

(١) انظر ترجمته : - وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٩٥ .
- شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ .

(٢) انظر ترجمته ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٧ .

(٣) انظر ترجمته : - الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٩ .

(٤) انظر ترجمته : عزالدين بن الأثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥م ، ج ١ ، ص ٩ .

(٥) وهو أبو نزار ، الحسن بن صافي بن عبدالله بن نزار النحويّ المعروف بملك النحاه (ت ٥٦٨هـ) برع في النحو حتى صار أنحى أهل طبقته ، درّس النحو بدمشق ، كان معجباً بنفسه حتى لقب نفسه (بملك النحاه) ، له مصنفات كثيرة في النحو والأدب والفقه والقراءات .
- انظر : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٦) وهو ، أبو محمد عبدالله بن برّى بن عبدالجبار المقدسي المصري (ت ٥٨٢هـ) كان إماماً مشهوراً في علم اللغة والنحو ، علاّمة عصره ، كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء ، لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من الملوك إلا بعد أن يتصفحه ، كان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله ، واطلع على أكثر كلام العرب .
انظر : - وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .
- شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتاج الدين الكندي [١] ، والزواوي [٢] ، وغيرهم .

كما نشطت حركة تأليف دينية ، وذلك لما يقتضيه عصرهم من تفقه بأمور الدين ، وتمسك بالشريعة الإسلامية ، ولما لمسوه من تشجيع السلاطين والأمراء ، فكان البحث في القرآن الكريم وتفسيره ، فقد ألّف سليم بن أيوب (ت ٥٤٧هـ) مجلداً كبيراً في تفسير القرآن [٣] ، وألف عزالدين بن عبدالسلام كتاب «التفسير والمجاز في القرآن» [٤] ، وفي مجال الفقه ألّف ابن شداد كتاب «دلائل الأحكام» وكتاب «الموجز الباهر» وكتاب «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» ولكنها ما زالت مخطوطة ، وألف الشهرزوري [٥] ، وابن عصرون [٦] ،

٤٤٦٨٤٥

---

(١) وهو ، أبو اليمن ، زيد بن الحسن بن زيد بن سعيد الكندي ، الملقب تاج الدين (ت ٦١٣هـ) ، كان أوحد عصره في فنون الأدب ، وهو نحوي ، لغوي ، مقرئ ، محدث ، انتهت إليه القراءات وعلم النحو ، وله شهرة واسعة .

انظر : - ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٣٣ ، ج ١ ، ص ٢٩٧ .

- وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٢ .

(٢) وهو ، أبو الحسين ، يحيى بن عبدالمعطي بن عبدالنور الزواوي النحوي (ت ٦٢٨هـ) ، كان أحد أئمة عصره في النحو واللغة ، وكان غاية في حفظ كلام النحاه ، وصنف تصانيف مفيدة منها الألفية في النحو .

انظر : - ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط ٤ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ج ١٣ ، ص ١٢٩ .

- وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ١٩٧ .

(٣) كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٤١ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٥ .

(٥) وهو ، أبو الفضل ، محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري (ت ٥٧٢هـ) والملقب بكمال الدين الفقيه الشافعي ترقى إلى درجة الوزارة في أيام نورالدين وبقي على حاله في زمن صلاح الدين ، كان فقيهاً ، أديباً ، شاعراً .

انظر : - وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٤ .

- شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ .

(٦) ابن عصرون أبو سعيد ، عبدالله بن محمد بن هبةالله بن أبي عصرون (ت ٥٨٥هـ) فقيه شافعي من أعيان الفقهاء في عصره ، قال عنه العماد : «ختمت به الفتاوى» .

انظر : - شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ .

- الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن الزكي [١] مجموعة أخرى من الكتب الدينية .

وفي مجال الحديث ، نجد أن هذا العصر هو عصر الحديث النبوي الذهبي ، لاهتمام السلاطين به [٢] ، ويقال في نورالدين : «إنه أول من بنى دار الحديث فيما علمنا» [٣] فكثرت دور الحديث حفظاً وسماعاً ودرساً ، وكثُر المحدثون أيضاً ، ومن مشاهيرهم القاضي «بهاءالدين بن شداد» إذ ألف كتاب «دروس في الحديث» ، وكتاب «دلائل الأحكام» ، والشيخ «النووي» [٤] ومن مصنفاته «شرح مسلم» ، والشاطبي [٥] ، والسلفي وابن عساكر والدمشقي ، وغيرهم .

وفي مجال المعرفة العلمية كالحساب والكيمياء نبغ (بلمظفر نصر) ، حتى قال فيه ابن أبي أصيبعة : «وكان مغرى بصناعة الكيمياء والنظر فيها والاجتماع بأهلها ، وكتب بخطه من الكتب التي صنعت فيها شيئاً كثيراً جداً» منها «تعاليق

---

(١) هو ، أبو المعالي ، محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن يحيى بن عبدالعزيز ، القرشي الدمشقي ، الفقيه الشافعي ، كانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة المكينة ، وهو صاحب الخطبة الأولى ببيت المقدس بعد فتحه (ت ٥٨٣هـ) .

انظر : - وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ .

- البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) - ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨ .

- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٣) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، ص ٣٩ .

(٤) وهو ، محي الدين أبو زكريا ، يحيى بن شرف الحواربي ، الشافعي ، صاحب التصانيف الواسعة ، وكان لا يضيع له وقت لا في ليل ولا في نهار ، حتى في الطريق ، وكان يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على مشايخه ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يشتغل عليه ، من تصانيفه «شرح مسلم» و«رياض الصالحين» .

انظر : شرح صحيح مسلم ، مقدمة الكتاب ، ص ٣ ، ٥ .

(٥) وهو ، أبو محمد ، القاسم بن أبي القاسم الشاطبي ، الضرير ، المقرئ ، كان عالماً بكتاب الله تعالى ، قراءةً وتفسيراً ، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبرزاً فيه ، وكان إذا قرئ عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ تُصحح النسخة من حفظه ، وكان نزيل القاضي الفاضل في مصر ، ورتبه بمدرسته متصدراً لإقراء القرآن الكريم ، (ت ٥٩٠هـ) .

انظر : - البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٠ .

- وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧١ ، ٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الكيمياء » و« مختارات في الطب » .. وغيرها [١] .

وقد انتفع المسلمون بعلم الكيمياء ، وسخّروه لجهاد عدوهم ، فهذا علي بن عريف النحاسين أحرق أبراج العدو في عكا بقذفها بمواد كيماوية شديدة الاشتعال أعدّها هو [٢] .

كما نشط أيضاً علم الفلك في رعاية الملوك الأيوبيين ، وكان الملك (المظفر تقي الدين) قد استدعى (علم الدين قيصر) المهندس الرياضي (ت ٦٤٢هـ) فبنى له أبراجاً فلكية ، وأقام طواحين مائية ، وعمل له كرة خشبية مدهونة رسم عليها خارطة كبيرة ، وعيّن عليها جميع الكواكب المرصودة ، وقد ساعده في وضعها جمال الدين بن واصل [٣] ، وفي مجال الطب برع المهرة المتخصصون كابن مطران ، الذي كان أمير أهل زمانه [٤] ، وابن الحاجب [٥] ، والسديد [٦] وغيرهم .

كما كان التأليف زاهراً في مجال المعرفة العامة ، فهذا ابن الجوزي ألف في جميع فروع الثقافة الإسلامية في عصره ، فقد ألف في القرآن والحديث

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٥٧١ .

(٢) - ابن شداد ، النوادر السلطانة ، ص ١٣٦ .
- أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٣) ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الوهابية ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

(٤) هو ، موفق الدين أبو نصر ، أسعد بن أبي الفتح بن جرجس المطران ، كان سيد الحكماء وأوحد العلماء ، كان والده طبيباً خدم لصناعة الطب الملك الناصر صلاح الدين ، حظي في أيامه ، وكان رفيع المنزلة عنده عظيم الجاه ، أسلم في أيام صلاح الدين ، (ت ٥٨٧هـ) بدمشق .
انظر : - الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .
- عيون الأنباء ، ٦٥١:٦٥٩ .

(٥) هو ، مهذب الدين بن الحاجب ، كان طبيباً مشهوراص فاضلاً في الصناعة الطبية ، تميز بها وصار من جملة أعيانها ، خدم في البيمارستان الكبير الذي أنشاه نورالدين ، وخدم الملك الناصر ، وبقي في خدمته إلى أن توفي صلاح الدين ، توفي بحماه ، بعلة شديدة .
انظر : عيون الأنباء ، ص ٦٥٩ ، ٦٦٠ .

(٦) الشيخ السديد رئيس الطب ، هو القاضي الأجل السديد ، أبو المنصور عبدالله كان عالماً بصناعة الطب ، خبيراً بأصولها وفروعها ، جيد المعالجة ، كثير الدربة ، كان أبوه طبيباً ، توفي في القاهرة سنة ٥٧٢هـ .
انظر : عيون الأنباء ، ص ٥٧٢ ، ٥٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتاريخ واللغة والأدب ، وكان علاّمة عصره ، وكتبه أكثر من أن تُعد [١] وعبداللطيف البغدادي أيضاً .. صنف ما يزيد على خمسين كتاباً في مختلف الفنون والعلوم [٢] ، والقاضي «بهاءالدين بن شداد» ، الذي يعتبر موسوعة علمية شاملة تحتوي على العلوم الشرعية ، والقضائية ، والسياسية ، والتاريخية ، والأدبية .

كما أثرت الحروب الصليبية على الأدب شعراً ونثراً ، لأنها حركت قرائح الشعراء والأدباء ، وألهبت مشاعرهم ، واستثارت عواطفهم فقالوا القصائد في أحداثها ، وشجعهم أولو الأمر على القول . فقد اشتهر الأيوبيون بحبهم للشعر ، وكان السلطان صلاح الدين يحب الشعر ويتذوقه ، وكان يستحسن الشعر الجيد ويردده في مجلسه [٣] ، وكان يحفظ «الحماسة» [٤] ، كما كان يكثر التمثل بالشعر [٥] ، وكان مشغوفاً بديوان أسامة بن منقذ ، ويستحسن قصائده ، ويفضله على سائر الدواوين [٦] .

كما عرف عن الملك الظاهر غازي حبه للشعر ، وتذوقه له ، وقدرته النقدية ، حتى كان يجيز الشعراء [٧] ، وظل تيار الشعر متدفقاً ، وظهر الكثير من الشعراء كابن قسيم الحموي (ت ٥٤٢هـ) [٨]

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٢) شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣٢ .

(٣) المقريزي ، السلوك ، صححه محمد مصطفى زيادة ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨ .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ١٤٦ ، ١٥٠ .

(٦) الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢١ ، ٢٣ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٧ .

(٧) - مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٨ .
- وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٦ .

(٨) انظر ترجمته : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن القيسراني (ت ٥٤٨هـ) [١] ، وابن الطرابلسي (ت ٥٤٨هـ) [٢] ، وابن الساعاتي (ت ٦٠٤هـ) [٣] ، وابن سناء الملك (ت ٦٠٨هـ) [٤] ، وابن عنين (ت ٦٣٠هـ) [٥] ، وغيرهم .

كما نشط النثر كثيراً في ذلك العصر ، فكثرت الرسائل الديوانية ، ومن كتاب العصر ابن القيسراني الذي استكتبه نورالدين وبلغ عنده مبلغاً عظيماً ، والقاضي الفاضل الذي ما يزال يرقى بجده واجتهاده حتى وصل إلى مرتبة الوزارة ، والعماد الأصفهاني ، الذي كان السلطان معجباً بأسلوبه في الإنشاء ، حتى إنه لما فتح القدس ، لم يعهد إلى أحد بكتابة رسائل البشارة ، وفضّل أن ينتظر لكي يكتب العماد الذي كان مريضاً إذ ذاك ، يقول العماد في ذلك «وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغربوا بها ويشرقوا ، وهو -السلطان- يقول لهم «لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار» ، فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة كل كتاب بمعنى بديع وعبارة» [٦] .

والقاضي «بهاءالدين» الذي كان رسول السلطان إلى الأمراء ، وخطيب المجالس التي يعقدها للتشاور في أمور الجهاد ، يقول : «وأكثر الرسائل كانت

---

(١) انظر ترجمته : - الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨ ، ٢١ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١١١ .
- وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٤٥٨ .
- شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .
- أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

(٢) انظر ترجمته : - وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٥٦ .
- شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .
- أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٢٣١ .

(٣) انظر ترجمته : - وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣ .

(٤) انظر ترجمته : - الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .
- وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٦١ .
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٥ .

(٥) انظر ترجمته : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٤ .

(٦) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكون في ذلك على لساني ويدي» [١] .

كما راجت الخطابة في ذلك العصر ، حيث كانت تستخدم في دعوة الناس إلى الجهاد ، وتحريضهم على قتال الصليبيين ، يقول «بهاءالدين» : «ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخر ، أحضر السلطان -قدّس الله روحه- الأمراء عنده ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك» [٢] .

وعندما فتحت القدس سنة (٥٨٣ هـ) ، «تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة ، فما فيهم إلا ورتب الخطبة وأنشأ معنىً شائعاً ، ووشى لفظاً رائقاً ، وسوى كلاماً بالموضوع لائقاً ، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً» [٣] .

ونصب للوعظ في المسجد الأقصى أيضاً سرير كبير ليجلس عليه الوعّاظ ، ويلقون الخطب الوعظية [٤] ، وازدهرت المكتبات العامة والخاصة ، إذ اهتم بها رجال الدولة ووزراؤها وأدباؤها وعلماؤها ، ومنهم القاضي الفاضل التي ضمت مكتبته مئة ألف مجلدة [٥] وعن بعض مصادرها يقول أبو شامة إن مكتبة القصر الفاطمي في القاهرة عندما باعوا خزانةالكتب الموجودة فيها : «كانت من عجائب الدنيا ، لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر ، وينتهي الأمر بهذه المكتبة العظيمة إلى أن بيعت بالمزاد وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها» [٦] .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٨ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢١٦ .

(٣) - الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .
- وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

(٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥) ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ط ١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٥١م ، ق ١ ، ج ٨ ، ص ٤٧٣ .

(٦) الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك مكتبة القاضي الأكرم وزير حلب ، القفطي * الذي جمع من الكتب ما لا يوصف ، وقصد من أجلها الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها [١] .

وكانت الرحلات تدلل على مظهر واضح للحركة الفكرية ، ذلك أن الرحلة بسبب الحج يتم فيها لقاء الوافدين بمشايخ ورجال العلم والفكر ، ويحصل حينها الامتزاج الثقافي ، ويتم التفاعل الفكري ، ويتحقق مبدأ التأثير والتأثر ، مما ينعكس على الإنتاج والتحصيل المعرفي بمختلف أنواعه .

وقد تكون الرحلة خاصة بطلب العلم ، أو خاصة لسماع الحديث ، وتعلّم الأمور الشرعية من الأئمة المشهورين فيه ، «كالحافظ السلفي» نزيل الاسكندرية ، فقد «قصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله» [٢] .

و«بهاءالدين» أيضاً عندما كان بحلب «كانت الطلبة تقصده من البلاد لثلاث اجتمعن فيه : العلم والمال والجاه» [٣] . ومن تلاميذه أبو شامة الذي يقول «وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق ، وأجاز لي جميع ما يرويه ثم سمعت عليه بمصر» [٤] ، وابن واصل من تلاميذه أيضاً يقول : «وترددت إلى خدمة القاضي بهاءالدين بن شداد مراراً ، وكان نزولي بمدرسته» [٥] .

---

* هو جمال الدين أبو الحسن ، أحد الكتّاب المشهورين ، جمع من الكتب ما لا يوصف ، وقصد بها الآفاق ، وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار ولا زوجة ، وكانت تساوي خمسين ألف دينار ، له عدد من التصانيف منها «أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين» ، «أخبار النحويين» ، «تاريخ اليمن» وغيرها .

انظر : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(١) - ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، تحقيق محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥١م ، ج ٢ ، ص ١٩١ ، ١٩٣ .

- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣١٢ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت ، مج ٥ ، ص ١٥٢ .

(٤) أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، دار الجيل ، بيروت ، وفيات سنة ٦٣٢هـ ، ص ١٦٣ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعندما سكن «بهاءالدين» حلب قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل الاشتغال والاستفادة» [١] ، وقد لقي الوافدون منهم إلي مصر والشام كل رعاية وعناية من السلطان ، فأمّن لهم ما يحتاجونه لمواصلة الدراسة والبحث ، يقول ابن جبير ، : «ومرافق الغرباء أكثر من أن يأخذها الإحصاء ، لا سيما لحُفّاظ كتاب الله عز وجل، والمنتمين للطلب ، فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها ، فادخل أيها المجتهد بسلام» [٢] .

كما اتسم اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين بأن (أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا لذلك ، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيزون بها من علاج وغذاء» [٣] .

وبعد ، فإن ذلك العصر نشطت فيه الحركة الثقافية نشاطاً ملحوظاً ، ولا نعرف في تاريخ الحضارة الإسلامية عصر خصب ثقافي ، ونضج فكري ، وغزارة في التأليف والتصنيف ، وكثرة في دور العلم المختلفة من مدارس عامة ومتخصصة لا سيما في مجال الطب ، ومساجد ومراكز تعليمية ورحلات ، ومكتبات متنوعة ، وبيمارستانات ، وعلماء في جميع التخصصات ، وشعراء وأدباء وخطباء ، كحال ذلك العصر المميز الذي نكتب حوله ، حتى أصبحت الحركة الفكرية الثقافية هي حركة بعث علمي جديد ، وهو (عصر إحياء للفكر والثقافة الإسلامية والعربية ، كما كان عصر إحياء سياسي) [٤] .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٥٨ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٥ .

(٤) محمد زغلول سلّام ، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٧٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يمكن أن يوسم بالجمود والانحطاط والانحسار والجفاف ، والسطحية ، والعقم والانحراف والانحدار [١] ، ويكفي من تلك الثقافة الزاهرة التي أدت دورها قول صلاح الدين الأيوبي عندما فتح القدس ، «لا تظنوا أنني فتحت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل» [٢] .

وفي عنفوان هذه الثقافة المتنوعة ، عاش صاحبنا القاضي «بهاءالدين بن شداد» فكان من أعلام العصر سياسياً ومؤلفاً .

---

(١) بعض الدارسين صنّفوه على أنه بداية عصر (الانحطاط والجمود) .

انظر : - إشارة د. محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، دمشق ، ١٩٧٧ ، ص ٤ .

- إنعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ص ٥٤٣ ، ٥٤٦ .

- شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٦٤ .

- عبدالعزيز الأهواني ، ابن سناء الملك وشكلة العقم والابتكار ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، صورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٦ ، ص ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

سيرة بهاء الدين بن شداد

- اسمه ونسبه وكنيته
- نشـــــأتـــه
- ثقـــــافتـــه
- شيـــوخـــه
- تلاميـــــذه
- تنقلاته وأعماله
- منزلتـــــه
- صلته بالسلطان صلاح الدين ، ومنزلته عنده
- وفـــاتـــه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

سيرة بهاء الدين بن شداد

اسمه ونسبه

هو يوسف بن رافع بن تميم بن عُتبة بن محمد بن عتاب الأسدي ، الموصلي ، الحلبي ، الشافعي ، المعروف بابن شداد ، والملقب ببهاء الدين ، وشداد جده لأمه ، فنسب إليه ، يقول أبو الفداء : «ولم يكن في أيامه من اسمه شداد بل لعل ذلك في نسب أمه فاشتهر به وغلب عليه» [١] كان يكنى بأبي العز أولاً ، ثم غيّر كنيته وجعلها أبا المحاسن [٢] .

قال الحنبلي في كنيته : «بهاء الدين أبو العز» [٣] ، وقال ابن الجزري : «يوسف بن رافع .. أبو المحاسن وأبو العز» [٤] ، وغير ذلك جاء متفقاً في الاسم واللقب والكنية [٥] .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ط ٢ ، المطبعة الحسينية ، مصر ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

(٤) غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٥) انظر : - شمس الدين الذهبي ، سِير أعلام النبلاء ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، مج ٢٢ ، ص ٣٨٣ .
- جمال الدين بن واصل ، مفرج الكروب ، تحقيق د. حسنين ربيع ، ج ٥ ، ص ٨٩ .
- مجيرالدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، ج ٢ ، ص١٠١
- الدمشقي ، البداية والنهاية ، مكتبة العارف ، بيروت ، ج ١٣ ، سنة ٦٣٢هـ .
- السبكي ، طبقات الشافعية ، مج ٥ ، ص ٦٥١ .
- الأسنوي ، طبقات الشافعية ، دار العلوم ، الرياض ، ج ٥ ، ص ١١٥ .
- البغدادي ، هدية العارفين وآثار المصنفين ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأجمعت كل المصادر المترجمة له أنه ولد بالموصل [١] ، أما تحديد يوم ولادته وشهرها فقد انفردت بها بعض المصادر وأولها ، كتاب «وفيات الأعيان» [٢] ، ثم «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» [٣] ، و«التكملة» [٤] ، حيث ذكرت ولادته في ليلة العاشر من شهر رمضان ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، يقول المنذري : «واجتمعت به عند ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه ، واستخبرته مشافهة ، وسألته عن مولده فقال : في شهر رمضان سنة تسع و ثلاثين وخمسمائة ، وبلغني عنه أنه قال : في العاشر من رمضان بالموصل» [٥] ، أما عن تحديد سنة الولادة فقد اتفقت جميع المصادر في ذكر هذه السنة ، يقول ابن واصل : «كان مولده -رحمه الله- سنة تسع وثلاثين وخمسمائة» [٦] ، ويقول ابن خلكان : «ولد بالموصل ليلة العاشر من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة» [٧] ، ويقول مجيرالدين الحنبلي : «ولد في ليلة الأربعاء العاشر من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة» [٨] ، وفي كتاب الشذرات يقول الحنبلي : «ولد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة» [٩] .

---

(١) - شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
- غاية النهاية ، ج ٥ ، ص ٣٩٥ .
- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، مج ٥ ، ص ٦٥١ .
- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٤ ، ص ٣٥٨ .
- الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٣) الأنس الجليل ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٤) التكملة لوفيات النقلة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

(٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٧) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٤ .

(٨) الإنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٩) شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكل هذه المصادر تؤيد ما جاء نصه على لسانه عندما سأله المنذري عن مولده ، فقال : «في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة» [١] .

نشاتـــه

مات أبوه وهو صغير ، فنشأ عند أخواله بني شداد ، وشداد جده لأمه فنسب إليهم ، وابن شداد - كما ذكر - موصلي المولد والنشأة ولكنه حلبي الدار ، إذ عاش بقية حياته في حلب وكان قاضيها .

ولم تذكر لنا المصادر شيئاً عن تفاصيل حياته الأسرية ، ولا عن سنوات صباه الأولى قبل التحاقه بخدمة صلاح الدين وأولاده من بعده ، إلا أن تلميذه ابن واصل ذكر لنا في كتابه «مفرج الكروب» -وهو المصدر الوحيد- بعض خصوصياته فقال : «تزوج ابنتيّ الشيخ الصالح عبدالرحمن بن علوان المعروف بابن الأستاذ ، واحدة بعد الأخرى ، وكانتا في غاية الصلاح والدين ، ولم تلد واحدة منهما له ولداً» [٢] .

وليس لدينا ما يدلنا على وجود أقارب له ، بل إن بعض المصادر نفت وجودهم ، فهذا ابن خلكان يقول : «ولم يكن له وارث» [٣] ، ويقول السبكي في طبقاته الكبرى : «كان القاضي بهاءالدين لا ولد له ولا قرابة» [٤] ، ويقول الذهبي في معرفة القراء : «لم يرزق ولداً ، ولا كان له أقارب» [٥] . وهذا ما اتفقت عليه جميع المصادر .

وعلى ما يبدو ، أن أهل أمه مات أغلبهم ، أو انقطعت علاقتهم معه ، أو قد يكون رحيله إلى حلب فيما بعد وبقاؤه فيها سبباً في عدم اتصاله بذوي قرباه ،

---

(١) التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

(٢) مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٩١ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٠٠ .

(٤) الطبقات الكبرى ، مج ٥ ، ص ١٥٢ .

(٥) معرفة القراء ، ج ٢ ، ص ٦٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلم نجد حادثة ، أو قصة تدلنا على علاقته بأسرته في صباه وشيخوخته ، إلا ما قد ذكر في ظروف نشأته وهو صغير .

ثقافتـــه

كان ابن شداد واسع الثقافة يُشار إليه بالبنان في علوم كثيرة من علوم عصره .

تلقى علومه الأولى في الموصل ، فحفظ القرآن في صغره ، وقرأ بالطرق السبع ، وأتقن فن القراءات ، وأخذ عن شيوخه في الموصل علوم القرآن والتفسير وعلوم الحديث الشريف ، ودرس الفقه ، ولم يغفل الأدب بل يذكر أنه درسه في صباه . وكان يحبه ويستشهد بالشعر [١] ، وكان مشهوراً بالرواية ، والأدب ، والشعر والتفسير ، وقد اختلف في مقتبل عمره إلى كثير من العلماء المشهورين في زمانه ، فهو يقول كما يروي ابن خلكان : «وأول من أخذت عنه شيخي الحافظ صائن الدين يحيى بن سعدون رحمه الله تعالى ، فإني لازمت القراءة عليه إحدى عشرة سنة ، فقرأت عليه معظم ما رواه من كتب القراءات ، وقراءة القرآن العظيم ، ورواية الحديث وشروحه والتفسير ، حتى كتب لي خطه بجميع ما قرأت عليه ..... في قريب من كراسين» [٢] .

ثم قال : «ومنهم الشيخ أبو البركات عبدالله بن الخضر المعروف بابن الشيرجي ، سمعت عليه بعض تفسير الثعلبي ، وأجازني أن أروي عنه جميع ما رواه على اختلاف أنواع الروايات ..... ، وكان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه» [٣] .

ويتابع فيقول : «ومنهم الشيخ مجدالدين أبو الفضل عبدالقاهر الطوسي الخطيب بالموصل ، وهو مشهور بالرواية حتى يقصد لها من الآفاق ..... ، سمعت

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه كثيراً من مسموعاته ، وأجاز لي جميع ما رواه في السادس والعشرين من رجب ، سنة ثمان وخمسين وخمسمائة »[١] . «ومنهم القاضي فخرالدين أبو الرضا سعيد بن القاسم الشهرزوري ، سمعت عليه مسند الشافعي رضي الله عنه ..... ، وسنن أبي داود ..... ، وسمعت عليه الجامع لأبي عيسى الترمذي وأجاز لي رواية ما رواه ، وكتب لي خطه بذلك في شوال سنة سبع وستين وخمسمائة »[٢] . ومنهم الحافظ سراج الدين علي الجياني ، قال : «قرأت عليه «صحيح مسلم» من أوله إلى آخره بالموصل ..... ، وأجاز لي رواية ما يرويه »[٣] .

ويتابع قوله فيذكر : «هذه أسماء من حضر في خاطري ، وقد سمعت من جماعة لم يحضرني روايتهم عند جمع هذا الكتاب * ، كشهدة الكاتبة في بغداد ** ، والشيخ رضي الدين القزويني المدرس بالنظامية ، وجماعة شذّت عني طرقهم ، فلم أذكرهم ، إذ كان في هؤلاء غُنيه »[٤] .

لقد كان «ابن شداد» حسن المحاضرة ، جميل المذاكرة ، يميل للأدب كثيراً ، وينشد في مجالسه الشعر[٥] ، وأكثر ما كان ينشد أبيات يحفظها

---

(١) وفيات الأعيان ، ص ٨٥ .

(٢) نفسه ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

(٣) نفسه ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

* وهو كتاب «دلائل الأحكام» انظر : ابن خلكان ، ج ٦ ، ص ١٧٢ .

** وهي شهدة بنت أبو نصر ، أحمد بن الفرج ، ابن عمر الإبري ، فخر النساء ، كاتبة دينورية الأصل بغدادية المولد والوفاة ، كانت من العلماء ، وكتبت الخط الجيد ، وسمع عليها خلق كثير ، وكان لها السماع العالي ، ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر ، اشتهر ذكرها وبعد صيتها ، توفت في سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وقد نيفت على تسعين سنة» .
انظر : ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٧٨ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

(٥) - وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩١ .
- النوادر السلطانية ، ص ١٥٩ ، ٢٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأبـي الفوارس المعـروف (بحيص بيص) * وكان يقول إنـه سمعها منه ويرويها عنه [1] ومنها :

لا تَضَعْ من عظيـم قـدْرٍ وإن كنـ ـتَ مُشـاراً إليـه بالتعظيـم
فالشريـفُ الكريمُ يَنقص قَـدْراً بالتعـدِّي علـى الشريـف الكريـم

وقد جاءت هذه الأبيات رداً على بعض الشعراء الذين تمادوا عليه بالهجاء والتهجم مع استخدام أسلوب السخرية في هجائهم [2] .

ويقال أنه دخل عليه يوماً رجل من أهل المغرب يقال له أبو الحجاج يوسف ** وكان قريب العهد ببلاده ، ورد حلب في تلك الأيام ، وكان فاضلاً في الأدب والحكمة ، فرأى «ابن شداد» قد نَحُفَ وكَبُرَ وضَعُفَ وساء حاله ، فأنشده :

لو يعلمُ الناسُ ما في أن تعيش لهم بكوا لأنك مـن ثـوب الصبـا عارِ
لو أطاقـوا انتقاصاً مـن حيـاتهم لمـا فَـدَوْكَ بشيء غيـرِ اعمـار

فـأعجب ذلك ابن شداد ، ودمعت عيناه ، وشكر له [3] ، وفيـه نجده يحب ويعجب ويسمع الشعر حتى في آخر أيام حياته .

---

* هو أبو الفوارس ، سعد بن محمد بن سعد الصيفي الملقب شهاب الدين ، المعروف بحيص بيص ، الشاعر المشهور ، كان فقيهاً شافعي المذهب ، تكلم في مسائل الخلاف ولكن غلب عليه الأدب ، أجاد فيه مع جزالة لفظه ، له رسائل فصيحة بليغة ، أخذ الناس عنه أدباً وفضلاً كثيراً ، كان من أفضل الناس علماً بأشعار العرب ، واختلاف لغاتهم ، وكان لا يخاطب أحداً إلا بالكلام العربي ، (ت ٥٩٤هـ) .
وحيص بيص تعني الشذة والاختلاط ، وقد خرج أبو الفوارس في يوم شدة على القوم ، فقال : ما للناس في حيص بيص ، فبقي عليه هذا اللقب .
انظر : - وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .
- محيط المحيط ، ص ٦٣ .

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٢ ، و ج٢ ، ص ٣٦٤ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

** هو يوسف بن يحيى بن اسحاق السبتي المغربي أبو الحجاج نزيل حلب ، معروف بابن سمعون ، عرف بالحكمة ، توفي سنة ٦٢٣هـ بحلب .
انظر : أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٤ ، ص ٣٥٣ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا أردنا أن ندقق في ثقافته ، نرجح أن أبرز أركانها كان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والفقه والتاريخ وإتقان فن الرواية ، وحبه للأدب وحفظه له نثراً كان أو شعراً . وإن كانت ثقافته الأدبية جانبية بالقياس إلى تكوين شخصيته العلمية جملة ، فإنها انعكست على إنتاجه بمختلف أغراضه ، لا سيما في كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» والذي سنتناوله بالبحث عرضاً وتحليلاً في الفصل الثاني ، ونركز على كون كاتبه أديباً .

هذا غير ما ترك من إنتاج وفير يدل على تنوع ثقافته ، ورجاحة عقله ، وحسن حفظه ، وقدرته على تطبيق علمي التوثيق والتحقيق عند تأليفه لأكثر الكتب القائمة على (فن الرواية) فابن شداد عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة والتأليف .

شيوخه

- **ابن سعدون القرطبي :**

أبو بكر ، يحيى بن سعدون بن تمام محمد الأزدي القرطبي ، ولد في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة في ديار الأندلس .

هو أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث الشريف والنحو واللغة وغير ذلك . دخل الاسكندرية وسمع من جماعة كثيرة وكذلك بمصر ، ودخل بغداد وقرأ القرآن وسمع الحديث على جماعة من أكابر زمانه، كان ديناً ورعاً ، عليه وقار وسكينة ، وكان ثقة ثبتاً ، قليل الكلام كثير الخير مفيداً .[1]

يقول ابن خلكان : «وكان شيخنا قاضي حلب بهاءالدين أبو المحاسن يفتخر بقراءته عليه ورؤيته ، ويقول وكان كل يوم يأتي إليه رجل ولا نعرف لماذا ، فإذا به يسمط له دجاجة ويتولى الشيخ طبخها بيده وكان كثيراً ما ينشد سنداً إلى أبي خير الكاتب الواسطي :

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـرى قلـم القضـاء بمـا يكـون فسيّـان التحـرك والسكـون

جنـون منـك أن تسعى لـرزق ويُـرزق فـي غشـاوته الجنـين [١]

فسبحان الله ، وقد أقسم بالرزق «وفي السمـاء رزقكم وما توعـدون» [٢] .

توفي الشيخ القرطبي بالموصل ، في يوم عيد الفطر من سنة سبع وستين وخمسمائة ، يقول بهاءالدين -نقلاً عن وفيات الأعيان- «إنه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة آخرها سنة سبع وستين وخمسمائة» وهي سنة وفاته [٣] رحمه الله تعالى .

* الجيّاني :

وهو أبو بكر الأندلسي محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن ياسر الأنصاري ، الجيّاني ، ولد بجيّان * سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، سافر من بلده ودخل ديار مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر ، ولقي أئمتها ، وتفقه ببخارى حتى تمهّر في المذهب والخلاف والجدل ، ثم اشتغل بالحديث وسماعه وحفظه وحصّل منه كثيراً ، وعاد إلى بغداد ودخلها سنة تسع وخمسين وخمسمائة (وهي السنة التي أجاز لابن شداد فيها رواية ما يرويه) [٤] .

يقول ابن شداد : «ومن شيوخي سراج الدين الجيّاني ، قرأت عليه «صحيح مسلم» من أوله إلى آخره بالموصل و«الوسيط» للواحدي ..... سنة تسع وخمسين وخمسمائة بالموصل [٥] ، وتوجه إلى مكة حاجاً ، ثم رجع إلى الشام واستوطن حلب

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٧٢ .

(٢) سورة الذاريات ، آية (٢٢) .

(٣) اليافعي ، مرآة الجنان ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، ج ٣ ، ص ٣٨١ .

* جيّان : مدينة كبيرة بالأندلس ، وتتميز بخصوبة أرضها وبكثرة عيونها وثمارها ، وهي عن قرطبة من جهة الشرق .

انظر : - ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

- وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

(٥) نفسه ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومات بها سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، كان متديناً ، صدوقاً ، حافظاً ، عالماً بالحديث وفيه فضل [١] .

• الطوسي الخطيب بالموصل :

وهو مجدالدين أبو الفضل عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالقاهر الطوسي الخطيب بالموصل ، ولد في منتصف صفر سنة سبع وثمانين وأربعمائة ببغداد ، كان مشهوراً بالرواية حتى إنه كان يقصد لها من الآفاق ، عاش نيفاً وتسعين سنة ، توفي ليلة الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة بالموصل ، ودفن بمقبرة باب الميدان [٢] ، رحمه الله تعالى .

• الأشيري الصنهاجي :

وهو الحافظ مجدالدين أبو محمد بن عبدالله بن علي الأشيري الصنهاجي راوية متنوع ، توفي في شوال سنة إحدى وستين وخمسمائة بالشام ، ودفن ببعلبك [٣] .

تلاميذه

كان لابن شداد تلاميذ عديدون ، ولكن أكثرهم شهرة وأعظمهم قدراً ، هو «المؤرخ قاضي القضاة أحمد بن إبراهيم بن خلكان» ، شمس الدين أبو العباس الشافعي ، الذي ولد سنة ثمان وستمائة ، تعلم وتفقه حتى أصبح فاضلاً بارعاً ، متفنناً علاّمة في الأدب والشعر وأيام الناس ، كثير الاطلاع ، حلو المذاكرة ، فيه رياسة كبيرة .

---

(١) - المقرئ ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق د. إحسان عباس ،دار صادر، بيروت،ج٥،ص٥٨.
- السبكي ، ج ٦ ، ص ١٥٣ .
- الشذرات ، ج ٤ ، ص ٢١٠ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٥ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

له كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وقد اشتهر كثيراً ، وله مجاميع أدبية أيضاً . قدم الشام في شبيبته ، وتفقه بالموصل على كمال الدين أبي يونس ، وأخذ بحلب عن القاضي بهاءالدين بن شداد [١] ، حيث كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للتلمذة على القاضي بهاءالدين في مدرسته . يقول ابن خلكان : «ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء» [٢] ، ويقول : «كنا نسمع إليه الحديث ، ونتردد إليه في داره» [٣] .

وقد لازم ابن خلكان ابن شداد فترة طويلة ، وقد خصه بترجمة واسعة شاملة في كتابه «وفيات الأعيان» مما كانت متّكأ رئيساً في ترجمته ، حيث قدم صورة رائعة للعالم الشيخ المؤرخ القاضي «بهاءالدين» لا سيما بعد أن أضعفه المرض ، وأرهقته الشيخوخة وفيها أجمل تصوير وتعبير . يقول ابن خلكان : «وكنا نسمع عليه الحديث ، ونتزدد إليه في داره ، وقد كانت له قبة تختص به وهي شتوية ، لا يجلس في الصيف أو الشتاء إلا فيها ، لأن الهرم كان قد أثّر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف ، لا يقدر على الحركة للصلاة وغيرها إلا بمشقة عظيمة ، وكانت النزلات تعتريه في دماغه ، فلا يفارق تلك القبة . وفي الشتاء يكون عنده منقل كبير عليه من الفحم والنار شيء كثير ، ومع هذا كله فلا يزال مزكوماً وعليه ثياب كثيرة ، وتحته الطراحة الوثيرة ، فوق البسط ذوات الخمائل الثمينة ، بحيث إنا كنا نجد عنده الحرّ والكرب ، وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف .

كان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا في شدة القيظ ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد، يكاد يسقط ، ولقد كنت انظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة وكأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما ، وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه وكان

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٦ .

(٢) نفسه ، ج ٧ ، ص ٩٠ .

(٣) نفسه ، ج ٧ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعجبه ذلك » [١] .

توفي ابن خلكان عشية نهار السبت سادس عشرين شهر رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة [٢] . وقد مدحه خلق كثير ، قال فيه شهاب الدين أحمد بن غانم كاتب الإنشاء ، يرثيه :

يا شمس علوم في الثرى قد غابت ... كم نَبت عن الشمس وهي ما [إن] غابت

لم تأت بمثلك الليالي أبدا ... إمّا قصُرت عنه وإمّا هابتْ [٣]

ومن تلاميذه ، عبدالرحمن بن اسماعيل بن عثمان الإمام العلامة ذو الفنون ، «شهاب الدين أبو شامة المقدسي» ، الدمشقي ، الشافعي ، الفقيه المقرئ ، المحدث الحافظ ، المؤرخ المفسر [٤] . سمي بأبي شامة لأنه كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة [٥] ، ولد سنة ست وتسعين وخمسمائة بدمشق ، وقرأ القرآن الكريم ، وله دون العشر ، وجمع القراءات كلها سنة ست عشرة على الشيخ السخاوي ، وأتقن الفقه ، ثم كتب الكثير من العلوم ، ودرس ، وأفتى ، وبرع في العربية . أخذ أبو شامة من ابن شداد الشيء الكثير . يقول أبو شامة : «وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر» [٦] .

من مؤلفاته الهامة كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» وكتاب «الذيل» عليه . وكتب أخرى مثل : «ضوء القمر الساري في معرفة الباري» ، و«الباعث على إنكار البدع والحوادث» ، و«المحقق في علم الأصول

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩١ .

(٢) انظر ، للمزيد عن حياته : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ، ص ٥ .
- العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .
- السبكي ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ١٤ .
- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٥٣ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٧ .

(٤،٥) العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٦) أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، وفيات سنة ٦٣٢هـ ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيما يتعلق بأفعال الرسول» .. وغيرها [١] .

(تولى مشيخة القراءة بالتربة الأشرفية ، ومشيخة الحديث بالدار الأشرفية، وكان مع كثرة فضائله متواضعاً مطرحاً للتكلف) [٢] .

توفي رحمه الله في تاسع عشر رمضان سنة خمس وستين وستمائة ، بسبب محنة تعرض لها . يقول العماد الحنبلي : «كان في داره ، فدخل عليه رجلان جليلان في صورة مستفتيين ثم ضرباه ضرباً مبرحاً إلى أن عيل صبره ولم يغثه أحـــد» [٣] .

ويقول ابن الجزري : «كان هذا الحادث في جمادى الآخرة ، ولأجله كانت وفاته سنة خمس وستين وستمائة . حضر إليه ببيته اثنان لا يعرف من سلّطهما فضرباه ضرباً عظيماً كان أن يموت منه ثم ذهبا .. فتوفي في شهر رمضان في تاسع عشر» [٤] .

وقد أنشد في ذلك لنفسه :

قلـت لمـن قـال أمـا تشتكـي ... مـا قـد جـرى فهـو عظيـم جليـل

تقبـض اللـــه تعالـــى لنـــا ... مـن يأخـذ الحـق ويشفـي الغليـل

إذا توكلنـــا عليـــه كفـــى ... فحسبنـا اللـــه ونعـــم الوكيـــل [٥]

ولعل من أجمل أشعاره قوله في السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظلـــه :

---

(١) - أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٩٨٢ .

(٢) - ابن الجزري ، غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

- العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

(٣) شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٨ .

(٤) غاية النهاية ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٥) - ا لروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إمـام محـب ناشـئ قـد صـدق وبـاكٍ مصلٍّ خائـف سطـوة الباس

يظللهـــم اللـــه الجليـــل بظلـــه إذا كـان يوم العـرض لا ظل للنـاس

أشـــرت بألفـاظ تـدل عليهـــم فذكرهـم بالنظـم في بعضهم قاس

وقال في المعنى أيضاً :

وقال النبي المصطفى إن سبعة يظلهم الله العظيم بظله

محـب عفيـف ناشـئ متصـدق وبـــاكٍ مصـلٍّ والإمـام بعـــدله [1]

ومن تلاميذه أيضاً ، «جمال الدين بن واصل» ، وهو جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم بن نصرالله بن واصل الحموي ، الشافعي ، ولد بحماة ثاني شوال سنة أربع وستمائة ، برع في العلوم الشرعية والعقلية والأخبار والأدب .

صنّف ، ودرّس ، وأفتى ، واشتغل ، وبَعُد صيته واشتهر اسمه ، ولي القضاء بحماة [2] تنقل كثيراً ، فسافر إلى حلب ، ولبث بها نحو عامين تردد خلالهما على ما بها من مدارس ومكتبات واتصل بمن فيها من علماء بارزين ، ومنهم «بهاءالدين» ، يقول ابن واصل : «قصدت خدمته وحضرت مجلسه ، واستفدت منه» [3] وكان رحمه الله : «عالماً فاضلاً ديناً محسناً إلى كل من يرد إلى حلب من الفقهاء وأهل العلم» [4] .

يقول ابن واصل : «وكان سفري إلى حلب في أواخر سنة ٦٢٧ فاقمت بها إلى شعبان سنة ٦٢٨ ، ثم ترددت إلى خدمة القاضي بهاءالدين بن شداد مراراً وكان نزولي بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره» [5] .

---

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

للمزيد ، انظر : - الصفدي ، الوافي بالوفيات ، باعتناء س. ديدرينغ ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

- عمر كحالة ، معجم المؤلفين وتراجم مصنفي الكتب العربية ، مكتبة المثنى ، بيروت ، ج ٥ ، ص ١٢٥ .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٩١ .

(٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ٩١ .

(٥) نفسه ، ج ٥ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن جملة الأحداث الواقعة أثناء إقامته في حلب أن احتبس الغيث وارتفعت الأسعار ، فخرج الناس للاستسقاء ، وفي مقدمتهم شيخ البلدة القاضي «بهاءالدين» .. يقول ابن واصل «وحضر الاستسقاء بهاءالدين فجاء مطير يسير بعد ذلك وانحطت الأسعار قليلاً» (١) .

وابن واصل تميز بعلاقة وطيدة مع القاضي «بهاءالدين» شملت الأمور العلمية والحياتية الواقعية .

ولابن واصل تصانيف كثيرة منها وأهمها «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ، و«نخبة الفكر في المنطق» ، و«الأربعين في الأصول» ، و«تجريد الأغاني»، وغيرها .. (٢) .

عُمِّر دهراً طويلاً ، وتوفي يوم الجمعة رابع عشرين شوال سنة سبع وتسعين وستمائة ، ودفن بترتبه ، عن أربع وتسعين سنة (٣) .

كذلك روى عن «بهاءالدين» بعض التلاميذ ، كالمنذري فهو يقول في التكملة : «وقدم مصر قديماً وحَدَّث بها ، ثم قدم بعد ذلك وحَدَّث بها ، وأقرأ بها القرآن الكريم، واجتمعت به عند ضريح الإمام الشافعي واستخبرته مشافهة (٤) .

وروى عنه أيضاً الكمال بن العديم * وولده ، والجمال الصابوني ، وسنقر القضائي ، والشهاب القوصي ، وآخرون (٥) .

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣١٢ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، ص ١١٣٤ ، ١٧٧٢ ، ١٩٣٧ .

(٣) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٨٥ .

(٤) المنذري ، التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

* ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أبي جرادة ، له كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» ، إلا أنه يفتقد لترجمة بهاءالدين بن شداد ، رغم أنه يستشهد بأقواله كثيراً في الكتاب .

انظر : - ج ٥ ، ص ٢٢٢٨ .

وقد تكون له ترجمة في بعض الأجزاء المفقودة من كتاب ابن العديم ، إذ إن الأجزاء الموجودة الآن تنتهي بحرف السين ، ولا شك أن لهذه الترجمة إن وجدت أهمية كبيرة لأن ابن العديم من أوائل من تتلمذوا على الشيخ ابن شداد .

- السبكي ، ج ٨ ، ص ٣٦ . - طبقات القراء الكبار ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

(٥) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالإجـــازة روى القاضـــي تقـــي الديـــن الحنبلـــي ، وأبـــو نصـــر ابـــن الشيـــرازي * [١] .

تنقلاته وأعماله

بعد أن أتم دراسته وأجاز له أساتذته جميع مروياتهم على اختلاف أنواعها ، نزل بالمدرسة النظامية ببغداد ، وترتب فيها معيداً منذ سنة ٥٦٦هـ ، أي وهو في السابعة والعشرين من عمره وظل يعمل بها حتى سنة ٥٦٩هـ ، ثم عاد إلى بلده الموصل ، فصار مدرساً بالمدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين الشهرزوري ، وانتفع بعلمه كثير من الطلاب حيث (لازم الاشتغال ، وانتفع به جماعة) [٢] . فعلت مكانته وارتفع ذكره ، وذلك لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة العقل والاتزان في التفكير . فقد عهد إليه أتابك الموصل ، بالسفارة في أمور سياسية بالغة الخطورة والأهمية . فحينما اشتدت الأزمة بين أمير الموصل عزالدين مسعود وبين صلاح الدين ، حيث لم يسع صلاح الدين إلا أن يسير لمهاجمة الموصل سنة ٥٧٨هـ والتمس لذلك من المبررات ما أوردها في رسالة وجهها إلى الخليفة الناصر تتضمن اتهام أمراء الموصل بالتحالف مع الصليبيين وإنزال الظلم برعاياهم ، حينها توجه ابن شداد رسولاً من قبل أمير الموصل عزالدين بن مسعود إلى بغداد ، ويقول بهاءالدين: «وكنت إذ ذاك في الموصل ، فسيرت رسولاً إلى بغداد» [٣] ، لكي يلتمس من الخليفة التوسط فيما نشب من نزاع بين أمير الموصل وصلاح الدين ، وحتى يرفع السلطان صلاح الدين الحصار عن مدينتهم .

ومرة ثانية ذهب ابن شداد موفداً من عزالدين مسعود إلى صلاح الدين الأيوبي . وقد كانت بعض هذه المهام سبباً للقائه بصلاح الدين ، ومعرفته ، ويشير

---

* له أخبار في وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣١٧ .

(١) الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٣ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٥ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن شداد إلى أنه ثبت في نفس صلاح الدين «في تلك الدفعة مني أمر لم أعرفه إلا بعد خدمتي له» [١]، حتى جاء عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة، بعد عودة بهاءالدين من الحج، إذ عزم على أن يزور بيت المقدس، وحينها بدأ الاتصال مع السلطان صلاح الدين، حيث كان قد استرد بيت المقدس من أيدي الصليبيين في تلك السنة.

ومن أهم أعماله التي كُلّف بها من قبل السلطان، ولاية قضاء العسكر، وقضاء بيت المقدس. وبقي فيها فترة، وبعد وفاة السلطان، توجه ابن شداد إلى حلب، لجمع كلمة الأخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض [٢]، ولم يلبث أن تولى القضاء في حلب، وأصبح ناظراً لأوقافها.

وفي هذه المرحلة لم يكن ابن شداد قاضياً عادياً، بل كان ركناً من أركان الدولة يقوم بمهمات تتجاوز حدود منصبه الأصلي، كدوره السياسي زمن الظاهر والعزيز، يقول ابن خلكان: «وكان القاضي أبو المحاسن بيده حل الأمور وعقدها، ومتولي تدبير الدولة» [٣] عن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، لأنه صغير السن، وأصبح أيضاً مهتماً بأمور البلاد عامة.

يقول ابن خلكان: «منذ كانت حلب في ذلك الزمان قليلة المدارس، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير، اعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها، وعمرت في أيامه بالمدارس الكثيرة» [٤].

أنشأ ابن شداد مدرسة شافعية يدرس فيها ويساعده في ذلك المعيدون، وهي قبالة مدرسة نورالدين محمود زنكي، يقول ابن خلكان: «ورأيت تاريخ عمارتها مكتوباً على سقف مسجدها، وهو الموضع المعد لإلقاء الدروس، وذلك في سنة إحدى وستمائة» [٥]، وأصبح لها تاريخ وحضارة فترة من الزمن، حتى قصدها

---

(١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٢.

(٢) نفسه، ص ٤.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص ٩١.

(٤) نفسه، ص ٨٩.

(٥) نفسه، ص ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفقهاء من البلاد ، وكثر الجمع بها [١] .

ويقول ابن واصل : «وكنت بحلب سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكان الأمر جارياً على ذلك وكانت الربعة تحضر في كل يوم فيقرأ ما تيسر ثم يدعو الداعي له «لبهاءالدين» ، ولا يذكر له لقباً بل يقول (وارض عن واقف هذه البنية ، راجي رحمة ربه الكريم يوسف بن رافع بن تميم» [٢] .

ثم تعطلت المدرسة الشافعية بعد ذلك وصارت مسكناً للنساء ، حتى قدم الشيخ الصالح علاء الدين الجبرتي وشرع في إخراج النساء منها وعمارتها ، وتبيضها ، وتوفير حصر ومصابيح وترتيب إمام ومؤذن لها [٣] .

وابن شداد لم ينس التدريس في حياته ، فكان يحتضن أهل العلم ويرعاهم بعلومه ، وماله وجاهه ، حتى أصبح مقصوداً للعلم والمنفعة ، وبفضله وعنايته كثر طلاب العلم ووجدوا لمواهبهم مجالات التفتح والفعالية ، وكان واضحاً من خلال تلاميذه وإنتاجهم .

ثم عَمّر في جوار المدرسة داراً للحديث النبوي * وهذه الدار كانت مجمعاً لأهل الحديث يسكنون بها ، ويقرؤون ويسمعون ويكتبون ويدخلون إلى الآفاق [٤] .

وجعل بينهما تربة ، يقول أبو ذر : «ومن آثاره ، الخانكة البهائية وهي بالقرب من دار الحديث التي أنشأها إلى جانب مدرسته وتربته كانت داراً يسكنها» [٥] .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ص ٩٠ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، تخحت سنة ٦٣٢ ، ج ٥ ، ص ٩٠ .

(٣) الحلبي ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

* لقد دثرت المدرسة ودار الحديث ولم يبق منهما سوى حجرة كبيرة بنيت منذ عهد قريب في جدار قصير في داخله آثار قبور ، وبينهما قبر الواقف رحمه الله ومكتوب على هذه الحجرة «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه دار حديث أنشأها لقراءة الحديث وإقرائه وحفظه وسماعه وإسماعه ، وتلقين القرآن العظيم وإقامة الصلوات الخمس في جماعة» .

انظر : الحلبي ، أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٩٣ .

(٤) نفسه ، ص ٣٩٣ .

(٥) نفسه ، ص ٣٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول ابن الوردي : «هذه تربة بين روضتين ورجا -ابن شداد- أن تشمله بركة العلم ميْتاً كما شملته حياً ، وأن يكون في قبره من سماع الحديث والفقه بين الري والريّا :

ربما أنعش المحب عيان ... من بعيد أو زورة من خيال

أو حديث وإن أريد سواه ... فسماع الحديث نوع وصال [1]

ومن الناحية الإدارية والسياسية ، تضاعف دوره ، خاصة في حكم الملك العزيز ، حتى وصل إلى أنه «لم يكن لأحد معه في الدولة كلام» [2] ، وتعدى دوره المجال الاجتماعي ، فحين عزم الملك العزيز الزواج بقريبته ابنة الملك الكامل ، ملك مصر ، أرسل ابن شداد تقديراً لمكانته ودوره وتفاؤلاً بشيخوخته وإيماناً بحسن تصرفه وحنكته ، ليأتي بالعروس ، وكان قد تجاوز «بهاءالدين» الثمانين عاماً [3] ، وفي هذا اعتماد شديد على «ابن شداد» في تسيير الدقيق من أمور الملك العزيز ، وفيه ولاء وإخلاص للسلطان صلاح الدين ولأبنائه من بعده . وعند عودته من السفر ، وجد دوره السياسي والإداري قد ضعف ، حتى تضاءل ، فقد بلغ العزيز سن الرشد ، وقام بأعمال «ابن شداد» ودبر أمر الحكم ، وحينها اقتصر عمل «ابن شداد» على مجالسة أهل العلم ، دون التدريس الفعلي بسبب تقدمه في السن واعتلال صحته فقد صار من الكبر منطوياً . وكان كلما نظر إلى نفسه على تلك الحالة من الضعف والعجز عن القعود وسائر الحركات ينشد :

ومن يتمن العمر فليدرع ... صبراً على فقد أحبائه

ومن يُعمر يسر في نفسه ... ما يتمناه في أعدائه [4]

---

(١) نقلاً عن الحلبي ، إعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣١٢ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يذكرني بقول «ابن منقذ» عندما بلغ ذروة التسعين ، حيث قارب «ابن شداد» في طول الفترة الزمنية التي عاشها ، يقول أسامة :

لما بلغت من الحياة إلى مدى ... قد كنت أهواه تمنيت الردى

لم يبق طول العمر مني مُنّة ... ألقى بها صرف الزمن إذا اعتدى [١]

لقد كان «ابن شداد» عالماً ، قاضياً مربياً فاضلاً ، مخلصاً للسلطان صلاح الدين ولأبنائه من بعده ، مستشاراً حكيماً في أمور الدولة ، بنى مدرسة عظيمة ، ودار حديث ، وبينهما تربته التي دفن فيها والتي لم يرحل منها حتى جاءه الأجل ، و«لكل أجل كتاب» .

منزلتـــه

كان ابن شداد ذا منزلة رفيعة عند جميع معاصريه ، وقد وصف بأحسن الصفات وأجلّها ، قال عنه السبكي في طبقاته : «كان إماماً فاضلاً ثقة عارفاً بالدين والدنيا رئيساً ، مشاراً إليه ، متعبداً متزهداً ، نافذ الكلمة ، اجتمعت الألسن على مدحه ، والقلوب على حبه لمكارمه وأفضاله ، ونفعه الطلبة في العلم والدنيا» [٢] .

وجاء في سير أعلام النبلاء أنه «كان ثقة حُجة عارفاً بأمور الدين ، اشتهر اسمه ، وسار ذكره ، وكان ذا صلاح وعبادة ، وكان في زمانه كالقاضي أبي يوسف في زمانه ، دَبَّر أمور الملك بحلب ، واجتمعت الألسن على مدحه» [٣] .

وصفه الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية بقوله : «كان رجلاً فاضلاً ، أديباً ، مقرئاً ، ذا وجاهة عند الملوك» [٤] ، وأكد قول الحافظ الذهبي في كتابه «معرفة

---

(١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، تحرير فيليب حتى ، برنستون ، ١٩٣٠ ، ص ١٦٠ .

(٢) السبكي ، الطبقات ، مج ٥ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٣٨٤ .

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، سنة ٦٣٢هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القراء» حيث قال «نال من الرياسة والحرمة والجاه ما لا مزيد عليه» [١] .

وقال ابن الوردي : «نال عند أولاد صلاح الدين منزلة قل أن تنال ، وأوقعه العزيز في السنة ما يزيد على مائة ألف درهم وكان فاضلاً ، ديناً» [٢] .

قال عنه تلميذه ابن واصل : «عاش بهاءالدين عند ابن صلاح الدين -الملك الظاهر- ثم عند ابنه الملك العزيز محترماً ، مكرماً ، متولياً الحكم في جميع ممالك حلب ، ومرجوعاً إلى رأيه ومشورته في أمر الملك ، ونال من المنزلة والحرمة والمكانة ونفاذ الكلمة ما لا أعرف أن أحداً في عصرنا هذا ناله» [٣] ، ويقول ابن خلكان عنه : «كان يلبس ملبوس الملوك ، والرؤساء يترددون إليه ، وكانوا ينزلون عن دوابهم إليه» [٤] ، وقد «صار المشار إليه في تدبير الدولة بحلب» [٥] .

وقال عنه اليافعي في مرآة الجنان : «ساد أهل زمانه ونال رياسة الدين والدنيا» [٦] .

وقال الحنبلي في الأنس الجليل : «كان القاضي بهاءالدين إماماً فاضلاً وجيهاً في الدنيا ، نافذ الكلمة وسيع المال» [٧] .

وقد وصلت مكانته الفعلية ، العلمية منها والسياسية والإدارية والاجتماعية إلى درجة رفيعة المستوى حتى قال عنها تلميذه ابن خلكان : «وكان القاضي أبو المحاسن بيده حل الأمور وعقدها ولم يكن لأحد معه في الدولة كلام» [٨] .

---

(١) الذهبي ، معرفة القراء ، ج ٢ ، ص ٦٢٠ .

(٢) ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٩ .

(٥) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .

(٦) اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

(٧) الحنبلي ، الأنس ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٨) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علاقته بالسلطان صلاح الدين ومكانته عنده

يبدأ اتصال ابن شداد بصلاح الدين بعد عودته من الحج سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، إذ زار بيت المقدس والخليل عليه السلام ، ودخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصرٌ قلعة كوكب . يقول ابن شداد : «وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته ، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين وكانت وقعة ابن المقدم» [١] ، وعلم السلطان بوصول «ابن شداد» إلى دمشق ، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتصل به في سفاراته السابقة [٢] ، ولذا فقد استدعاه إليه ، وظن أنه سيسأله عن كيفية قتل الأمير شمس الدين بن المقدم * أمير الحاج في تلك السنة من جهة صلاح الدين ، فلما دخل عليه : «بالغ في الاحترام والإكرام» [٣] وما زاد عن السؤال عن الطريق ، ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل ، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه ، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخاري ، وقرأه عليه بنفسه [٤] .

ويحدثنا ابن شداد عن كيفية اتصاله بخدمة السلطان قائلاً : «ولما ودّعته ذاهباً إلى القدس ، خرج لي بعض خواصه ، عمادالدين الكاتب ، وأبلغني تقدمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل ، وانصرفت إلى القدس الشريف حرسه الله تعالى» [٥] .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٨٥ .

(٢) انظر «تنقلاته وأعماله» في الفصل الثاني من الرسالة ، ص ٣٥ .

* وهو ، محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم ، اختلف مع أمير الحج العراقي عام٥٨٣هـ ، حول الإفاضة في عرفات قبله ، فلم يستجب ابن المقدم له ، فهجم العراقيون على الحجاج الشاميين وفتكوا فيهم ، وجرح ابن المقدم وهو يكف الناس عن القتال .
انظر : وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٧ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٨٥ .

(٤) - اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
- الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٣ .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأتمّ ابن شداد زيارته للقدس وعاد إلى دمشق ، ملبياً طلب السلطان ، يقول : «فوصلت إليه امتثالاً لأمره فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني» [١] .

وكان ابن شداد قد ألف أثناء مقامه في دمشق هذه المرة كتاباً في الجهاد ، يقول : «وكنت قد جمعت له كتاباً في الجهاد بدمشق مدة مقامي فيها ، يجمع أحكامه وآدابه (وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فضله ، وشرحت غريبها) [٢] ، فقدمته بين يديه ، فأعجبه وكان يلازم مطالعته» [٣] .

بعد ذلك كان عزم ابن شداد أن يستأذن السلطان في العودة إلى الموصل ، ولكن السلطان منعه ، يقول بهاءالدين : «وما زلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ، ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت ، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناءه عليّ وذكره إياي بالجميل ، ثم سَيّر إليّ مع الفقيه عيسى ، وكشف إليّ أنه ليس في عزمه أن يمكنني من العود إلى بلادي ، وكان الله قد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحبه للجهاد ، فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين» [٤] .

ومن هذا التاريخ يبدأ الاتصال الفعلي والمستمر بين السلطان صلاح الدين والشيخ بهاءالدين ، وتتوطد العلاقة ، فيُعيِّن السلطان بهاءالدين قاضياً لعسكره ، وللقدس الشريف «وهو أول قاضٍ ولي القدس بعد فتوح صلاح الدين» [٥] وولاه على أوقافه ، وعن وظيفة قاضي القضاة يقول القلقشندي «وهي أرفع الوظائف وأعلاها قدراً وأجلّها رتبة» [٦] .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٨٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢١ .

(٣) نفسه ، ص ٢١ .

(٤) نفسه ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٥) - المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٨٣ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، مج ٥ ، ص ١٥١ .

(٦) القلقشندي ، صبحي الأعشى في صناعة الإنشا ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم فوّض إليه التدريس بالمدرسة الصلاحية ونص على ذلك في كتاب قال فيه: «رضاءً بأمانته واعتقاداً في كفايته واعتماداً على ديانته» [١] ، «فإذا مات فإلى من يوصى إليه وينص عليه ممن يصلح لذلك» [٢] ، وشيخ الصلاحية يعنى (أن يعزل بأمر السلطان ، ويعنى تولي السلطة الفعلية في القدس وصرف الشؤون العامة فيها ، كما كان يلقب شيخ الصلاحية بشيخ الإسلام) [٣] .

ولمعرفة السلطان بقدر قاضي القضاة «بهاءالدين» ، وضعه في هذا المركز الهام والفاعل في العلم والسياسة .

ويظل «بهاءالدين» مصاحباً للسلطان ، باقياً في خدمته ، ملازماً له ، لا يفارقه ساعة من ليل أو نهار ؛ يقول ابن شداد : «ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة -وكانت ليلة الجمعة- من أول الليل إلى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاءً ، وليس معنا ثالث إلا الله تعالى» [٤] .

ثم يؤكد ملازمته في كل وقت قائلاً : «ولما كان يوم الأربعاء طلبني فحضرت عنده» ، «ولما كان بكرة الخميس ، استحضرني ، فحضرت عنده بكرة وعنده أولاده الصغار» [٥] ، وتقرب إلى السلطان كثيراً ، وأغدق عليه السلطان حبه ، ورافقه وشاركه وشهد معه المعارك التي حدثت بينه وبين الصليبيين [٦] ، وكان رسول السلطان إلى الأمراء وخطيب المجالس التي يعقدها للتشاور في أمور الجهاد [٧] .

ولا شك أنه باشر في هذه الفترة ، بفضل اتصاله بالسلطان جمع الوثائق والمعلومات التي كوّن منها فيما بعد كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» .

---

(١) المنبلي ، الأنس ، مج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، ص ٥٤ .

(٣) نفسه ، ص ٦٦ .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ١١ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤ ، ٢٤٢ .

(٦) نفسه ، ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٨٧ ، ٨٩ .

(٧) نفسه ، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظلت الصلة بينهما يتوثق عُراها حتي يقول ابن شداد : «وكان يستحضرني في خلوته» [١] «وكان يستيقظ من منامه ، ويصلي ، ويجلس خلوة وأنا في خدمته» [٢] ، و«صليت إلى جانبه كالعادة» [٣] .

ومن شديد صلته بالسلطان صلاح الدين حتى في أدق تفاصيل حياته يقول ابن شداد : «وأنا أثبت الأيام التي يصومها» [٤] .

وفي كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» الكثير مما يدل على تلك العلاقة النزيهة الفريدة من نوعها ، التي توضح أن شيخنا وقاضينا ومؤرخنا «بهاءالدين» هو أحد أصفياء صلاح الدين وموضع سره ، والرجل الأهم عنده ، يقول بهاءالدين : «فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده ، قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه -رحمه الله- فقام ولقيني ملقى ما رأيت أشد من بشره فيه ، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه -رحمة الله عليه»[٥] ، كذلك يقول : «لقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس ، فما تركني» [٦] ، ودائماً يكرر قوله : «وكنت إلى جانبه» [٧] .

وبعد تلك المواقف وشدة الاتصال والملازمة ، يُحكى أن انقطع «ابن شداد» يوماً عن مصاحبة صلاح الدين ، وهو على خراب مدينة عسقلان لمرض اعتراه ، فأرسل صلاح الدين من سأل عن صحة ابن شداد .

يقول ابن شداد : «عرض لي تشوش مزاج اقتضى انقطاعي عنه في ذلك اليوم ، وقد تردد إليّ من يسأل عن مزاجي عنه ثلاث مرات ، مع اشتغال قلبه

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨ .

(٣) نفسه ، ص ١٢ .

(٤) نفسه ، ص ٨ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤٢ .

(٦) نفسه ، ص ٢٩ .

(٧) نفسه ، ص ١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-رحمه الله- بذلك المهم» [١] .

وفي المقابل كان القاضي «بهاءالدين» يحمل للسلطان أسمى ما يستطيع الإنسان أن يحمله من آيات الإجلال والإكبار .

وظلت تلك الصلة على هذا النحو ، حتى أدركَت السلطان المنيّة . يقول : «حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، وطال جلوسنا عنده ، وأخذ يشكو من قلقه في الليل» [٢] ، «ثم أخذ المرض في تزايد ، ونحن نلازم التردد عليه» [٣] ، «وقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد في كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه» [٤] .

فالأحداث والمواقف والأيام ، ربطت بين السلطان وكاتم سره وصديقه رباط حب واحترام وإكرام ، فتعمق مفهوم ذلك الرباط لدرجة التضحية والإيثار ، يقول بهاءالدين : «بالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بالأنفس ، وكنت أتوهم أن هذا الحديث على ضرب من التجوّز والترخّص ، إلى ذلك اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس» [٥] .

وقال عند وفاته : «كان يوماً لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون» [٦] .

وفـــاته

كان الهرم قد أثّر فيه ، فضعف ، حتى أصبح لا يقدر على الحركة للصلاة وغيرها إلا بمشقة عظيمة ، وزاد حاله سوءاً ، حتى ظهر عليه الخرف وأصبح لا يعرف أحداً ، ويسأل عن كل من جاءه فيُعرّف له ، ثم لا يعرفه .

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤٦ .

(٦) نفسه ، ص ٢٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول ابن خلكان في وفاته : «ثم مرض أياماً قلائل و توفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، رحمه الله ، بحلب ، ودفن في التربة المقدم ذكرها ، وحضرتُ الصلاة عليه ودفنه وما جرى بعد ذلك» [1] ، ويقول المنذري: «وفي الرابع عشر من صفر ، توفي القاضي الأجل الإمام العالم أبو المحاسن يوسف ابن رافع ، المنعوت بالبهاء والمعروف بابن شداد ، بحلب وصلينا عليه صلاة الغائب في الشهر المذكور» [2] .

ويقول ابن واصل : «وكانت وفاته رحمه الله ، يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر من هذه السنة -وأرخ لها ٦٣٢هـ حسب منهج الكتاب- وكان عمره نحو ثلاث وتسعين سنة» [3] .

وهذه مصادر لا خلاف فيها في سنة وفاته ، بل هناك اتفاق على يوم الوفاة وشهره وسنته ، إلا أنّ بعضها ذكر السنة والشهر فقط ولم تذكر اليوم [4] .

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٩ .

(٢) التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

(٣) مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٨٩ .

(٤) - الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .
- سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٥ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، مج ٥ ، ص ١٥٢ .
- المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ١٥٦ .
- طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
- البداية والنهاية ، ج ١٣ ، تحت سنة ٦٣٢هـ .
- تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
- معرفة القراء ، مج ٥ ، ص ٦٢١ .
- النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٩ .
- مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

مؤلفاتـــه

* الكتب التاريخية الأدبية :

- «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية»

كتاب «النوادر السلطانية» وفن السيرة

* الكتب الدينية :

١ - دلائل الأحكام

٢ - دروس في الحديث

٣ - ملجأ الحكام عند التباس الأحكام

٤ - الموجز الباهر

٥ - فضائل الجهاد

٦ - العصا

* كتب التراجم :

- أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني
مؤلفاتــه

تقلد «ابن شداد» المناصب ، وتقرّب إلى السلاطين ، وبعد صيته وذكره ، وطال عمره ، وكثرت مؤلفاته في مختلف المجالات ، وقد أحصى هذه المؤلفات (جمال الشيال) في مقدمة كتاب (النوادر السلطانية) [١] ، واستقر الأمر عنده على أنها سبعة كتب (لأنه لم يذكر كتاب «الموجز الباهر») ، بينما بلغت مؤلفات بهاءالدين بن شداد التي وصلت إلينا والتي نَقلت المصادر والمراجع أخبارها ثمانية كتب .

وأما عن كتاب «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» فلا يُعد مما أحصيناه لأنه ليس له ، والحقيقة أن الكتاب نُسب خطأً لبهاءالدين بن شداد [٢] وهو لعزالدين بن شداد * المتوفى سنة ٦٨٤هـ والمولود بحلب [٣] ، وكذلك كتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» يعد من مؤلفاته [٤] ، وليس لبهاءالدين ابن شداد [٥] .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، تحقيق د. جمال الشيال ، ط ١ ، الدار المصرية للتاليف والنشر والترجمة ، ١٩٦٤ ، ص ٨ .

(٢) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

* لعل الخطأ جاء من التسمية بين الكاتبين ، ومن النسبة إلى حلب ، فالقاضي بهاءالدين قضى معظم حياته هناك وتوفي بها ، والآخر ولد بها . ولعل الاشتغال في مجال التاريخ والتاليف ، ولَد لبساً أيضاً ، فعزالدين كتب «سيرة الملك الظاهر» ، وقد يكون اجتماعهما في القرن السابع أعطى مجالاً للخطا أيضاً.

(٣) عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ، «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة» ، تاريخ مدينة دمشق ، سامي لدهان ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٤) عزالدن بن شداد ، تاريخ الملك الظاهر ، النشرات الإسلامية ، جمعية المستشرقين الالمانية ، ١٩٨٣ .

(٥) أكد النسبة الخاطئة (بروكلمان) ، وقال : «بوجود نسخة خطية من المجلد الثاني من هذا الكتاب في مكتبة سليم رقم ١٥٠٧ وأنه ترجم إلى اللغة التركية وطبع في استانبول سنة ١٩٤١ .

انظر : - تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، ص ١٣ .

- أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ص ١٦٢ .

- السيد الباز العُريني، مؤرخو الحروب الصليبية ، دارالنهضة العربية ، ١٩٦٢ ، ص٢٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما ما أجمعت عليه أغلب المصادر والمراجع [1] من مؤلفات للقاضي بهاءالدين بن شداد فهي كما يلي :

١ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

٢ - دلائل الأحكام .

٣ - دروس في الحديث .

٤ - ملجأ الحكام عند التباس الأحكام .

٥ - الموجز الباهر .

٦ - فضائل الجهاد .

٧ - العصا .

٨ - أسماء الرجال في المهذب للشيرازي .

وتُقسم مؤلفات القاضي «بهاءالدين» حسب موضوعاتها كالآتي :

أولاً : الكتب التاريخية الأدبية :

- كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» .

ثانياً : الكتب الدينية :

- كتاب «دلائل الأحكام» .

---

(١) - كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٧٥٩ .
- كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ٨٩٨ ، ١٠١٥ ، ١٢٧٥ ، ١٨١٦ .
- وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٧ .
- الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .
- الشذرات ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
- السلوك ، ج ١ ، ١٤٠ .
- الطبقات الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥١ .
- طبقات الأسنوي ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .
- مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .
- الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .
- معجم المؤلفين ، ج ١٣ ، ص ٢٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- كتاب «دروس في الحديث» .
- كتاب «ملجأ الحكام» .
- كتاب «الموجز الباهر» .
- كتاب «فضائل الجهاد» .
- كتاب «العصا» .

ثالثاً : كتب التراجم :

- كتاب «أسماء الرجال في المهذب للشيرازي» .

وأول ما سنقف عنده هو كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ، وقد أصبح «بهاءالدين» منذ مطلع جمادى الأولى عام ٥٨٤هـ من أقرب المقربين مكاناً ومكانةً إلى السلطان صلاح الدين يوسف ، وشهد معه أكثر الوقائع ، واطلع على أكثر ما يجري في بلاط السلطان الأيوبي ، فأصبح جديراً بعد هذه الظروف أن يؤرخ له ، فوضع هذا الكتاب سجلاً لسيرته ، وأطلق عليه «سيرة صلاح الدين» وكشفاً للحق وإيضاحاً للجوانب الغامضة من سيرته ، ركّز على النواحي الإنسانية والسياسية والعسكرية في حياة صلاح الدين . ودوّن لأهم فترة تاريخية في حياته، ناقلاً ومفصلاً تفصيلاً دقيقاً للأحداث والحروب الصليبية مع المسلمين ، وذكر أدوات القتال والحرب المستعملة من الجيشين ، وكأن الكتاب يُعد قاموساً يجمع كل ما اتصل بآلات القتال البرية والبحرية وكيفية استعمالها حتى أنه شرح بعضها ووصفه [1] ، وعرض للقضايا الاجتماعية والإدارية في المجتمعين الإسلامي والصليبي، وذكر بعض تقاليد الصليبيين في التشاور والتحكيم ، حيث يقول : «ومن عاداتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل ، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونه» [2] ، وذكر بعض الشرائع والأحكام التي كان يؤخذ بها جنود ملك الألمان

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٤٠ .

كما يوجد في الكتاب تعريف «دقيق» للآلات الحربية ، خاصة البحرية التي ذكرها ابن شداد ولم يصفها ، وقد وصفها المحقق .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنها «أن من جنى جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاه» [١] ، وأوضح أن بعض أمرائهم في الشام «كان يعرف العربية وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحداث» [٢] .

ومما أورده ابن شداد في كتابه عن طبائع الافرنج عند وفاة ملك الألمان ، يقول: «ولما مات أجمعوا آراءهم على أنهم سلقوه في خل وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه» [٣] .

وأما عن المجتمع الإسلامي فقد قال معبراً عن معاملة المسلمين للأسرى ، لا سيما السلطان ، وذلك بأن ينزلهم أحياناً في خيمته «ويمد لهم الطعام ، وينعم عليهم بما تطيب قلوبهم ، ثم تضرب خيامهم وينزلون بها مكرمين» [٤] .

ويقول في مكان آخر واصفاً فرحة السلطان بالنصر : «وعاد إلى خيمته مسروراً وحضرنا عنده للهاء بما جرى ، ومُدَّ الطعام وحضر الناس ، وأكلوا على عادتهم» [٥] ، ويتابع قوله عن بعض العادات الاجتماعية وعن عطف السلطان وعدله ، فيصف مجلس السلطان القائم على النظر في المظالم يومي الاثنين والخميس [٦] ، ويعبر أجمل تعبير عن علاقة السلطان بأبنائه وهي علاقة محبة وإيثار . فها هو ذا السلطان يودع ابنه الظاهر : «نهض له وودّعه ، وقبّل وجهه ومسح يده على رأسه» [٧] ، وفي مكان آخر يقول : «ونزل له عند لقائه واحترمه ، وأكرمه ، وضمه إليه وقبّل بين عينيه» [٨] ، وعندها ينقل «بهاءالدين» بعضاً من كلام السلطان صلاح الدين مع الملك الظاهر قبل أن يتوجه إلى بلاده ، وهي لفة

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ .

(٢) نفسه ، ص ٩٧ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٢٠ .

(٥) نفسه ، ص ٨٨ .

(٦) نفسه ، ص ١٣ .

(٧) نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٨) نفسه ، ص ٢٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحمل دلالات دينية وسياسية واجتماعية ، فهو يقول : «أوصيك بتقوى الله تعالى ، فإنها رأس كل خير ، وآمر بما أمرك الله به ، فإنه سبب نجاتك . وأحذرك من الدماء ، والدخول فيها والتقلد لها ، فإن الدم لا ينام ، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في أحوالهم ، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة وأكابرها ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد ، فإن الموت لا يبقي أحداً ، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يُغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله بتوبتك إليه فإنه كريم» [1] .

كذلك تجد كتابه شاملاً لعدد من الوثائق الهامة التي تلقي أضواءً على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة ، ومن بينها نصوص الخطابات المرسلة من كل من الكاغيوس مقدم الأرمن وامبراطور بيزنطة إلى صلاح الدين» [2] .

ويحتوي الكتاب على بعض المعلومات التي تعرف بأي شخص ورد ذكره بين السطور ، من حيث ولادته ، ووفاته ، وأعماله ، وعلاقته بالسلطان إلى غير ذلك من أمور [3] مثال ذلك عند حديثه عن عيسى الفقيه * يقول : «إنه مرض مرضاً كان يتعاهده وهو ضيق النفس ، وعرض له إسهال فأضعفه ، ولم يقطع صلاة ، ولم يغب ذهنه عنه إلى أن مات ، كان كريماً ، شجاعاً حسن المقصد ، كثير الغرام بقضاء

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٣٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) نفسه ، ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٦ ، ١٥٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٠ .

* هو ، أبو محمد ، عيسى بن محمد بن يوسف بن القاسم بن عيسى بن محمد بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية ، كبير القدر وافر الحرمة معولاً عليه في الآراء والمشورات . اتصل بالأمير أسدالدين شيركوه ، عم السلطان صلاح الدين ، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمسة . وبعد وفاة أسدالدين عمل مع صلاح الدين واعتمد عليه ، ولم يكن يخرج عن رأيه ، وكان كثير الإدلال عليه ، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام ، وكان واسطة خير للناس نفع بجاهه خَلقاً كثيراً .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٩٦ .

- ابن خلكان ، ج ٣ ، ص ٤٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حوانج المسلمين ، توفي رحمه الله طلوع فجر الثلاثاء تاسع ذي القعدة من شهور سنة خمس وثمانين وخمسمائة »[1] .

ومع كل هذا المحتوى المتنوع ، ترد بعض النوادر والطرائف التي تخفف عن القارئ وتخرج به إلى جو السلم الحافل بالطرائف[2] .

وقد قسم القاضي بهاءالدين كتابه إلى قسمين :

الأول : ويقع في ثلاثين صفحة[3] . يتعلق بالجوانب الشخصية لصاحب السيرة ، وقد تحدث فيه الكاتب عن مولد السلطان صلاح الدين فقال : « كان مولده رحمه الله ، -على ما بلغنا على ألسنة ثقات تتبعوه حتى بنوا عليه تسيير مولده على ما تقتضيه صناعة التنجيم في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت *»[4] .

وقد عاش صلاح الدين في ظل والده « أيوب بن شاذي » الذي كان والياً على قلعة تكريت ، ثم رحل معه إلى محروسة الموصل وأقام فيها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترماً مقدماً هو وأخوه أسدالدين شيركوه ** عند « أتابك زنكي » *** ، ثم

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١١٦ .

(٢) نفسه ، انظر : ص ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٥ .

(٣) نفسه ، ص ٥ ، ٣٤ .

* تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل ، وهي إلى بغداد أقرب ، وهي بلدة كبيرة لها قلعة حصينة على دجلة فوق بغداد .

انظر وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٥٠٠ .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ٥ .

** هو أبو الحارث ، شيركوه بن شاذي بن مروان الملقب الملك المنصور ، وهو عم صلاح الدين ، وقد تولى الوزارة سنة ٥٦٤هـ وأقام بها شهرين ، ثم توفي فجأة بالقاهرة ، نتيجة خانوق عظيم حيث كان يكثر من أكل اللحوم ، أدى فريضة الحج ، ولم يخلف ولداً سوى ناصرالدين محمد بن شيركوه الملقب بالملك القاهر . وشيركوه لفظه أعجمي الأصل ويعني أسد الجبل .

انظر : - النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

- وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٧٩ .

*** أتابك : كلمة تركية وتعني الذي يربي أولاد الملوك ، فاتا : الأب ، وبك : الأمير .

انظر : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انتقل والده إلى الشام ، وأعطي بعلبك ، فبقي في كنفه إلى أن بدت عليه أمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة ، ثم سافر مع عمه أسدالدين شيركوه إلى مصر ، بعد أن أصبح شاباً مكتملاً ، وهناك بدأت حياته العملية ، وبدأ دوره التاريخي في توحيد مصر والشام وصراع الفرنجة ، فقد أصبح وزيراً سنة ٥٦٤هـ .

بعد ذلك تناول الكاتب الجانب الخُلقي لصلاح الدين ، فيتحدث عن مواظبته على العبادات وتمسكه بالأمور الشرعية ، من حسن العقيدة وقوة الإيمان ، والمحافظة على الصلاة ، فقد «كان مواظباً على الصلاة مع الجماعة وعلى السنن والرواتب ، وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت في الليل ، ولقد رأيته -قدّس الله روحه- يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيّب فيها ذهنه» [١] . «كان مؤدياً للزكاة ، فإنه مات ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال ، صوّاماً قوّاماً ولم يزل يصوم حتى قضى ما كان عليه ، بل كان يؤدي فريضة الصوم وهو مريض ، والطبيب يلومه على ذلك ، وهو يقول له : «لا أعلم ما يكون» [٢] .

وأما عن نيته للحج فقد أراد أن يؤدي فريضة الحج وجهّز لذلك الزاد والقافلة، لولا ظروف الحرب التي جعلته يؤجل مسيرته إلى مكة للعام التالي وهو العام الذي توفي فيه [٣] .

ويقول بهاءالدين بن شدّاد عن صلاح الدين إنه كان محباً لسماع القرآن والحديث الشريف ومجالسة أهل الفقه والرأي وعلماء الدين وشيوخ الإسلام .

ويتناول الكاتب جانباً من كرمه فيقول : «كان -رحمه الله- يعطي ، ويكرم أكثر مما يُومّل الطالب» [٤] .

---

(١) النوادر ، ص ٧ .

(٢) نفسه ، ص ٨ .

(٣) نفسه ، ص ٩ .

(٤) نفسه ، ص ١٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد مات وهو السلطان المطلق ولم يخلف داراً أو ملكاً أو عقاراً أو بستاناً أو مزرعة ، ولا أي شيء من أنواع الأملاك ، يقول بهاءالدين : «سمعته يقول في معرض حديث جرى : «يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب» ويعلق الكاتب بقوله : «فكأنه أراد بذلك نفسه ، رحمه الله تعالى ، فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين» [١] .

وتحدث الكاتب عن عدله ورحمته ونصرته الضعيف على القوي ، ثم وصف شجاعته واهتمامه بأمر الجهاد وحبه له .

وذكر طرفاً من صبره ، فكثير من شؤون عصره لا يعايشها إلا الصبور ، وإن احتماله خلافات قادته وانشقاقات أمته صبْر ، وان هدوءه وكياسته صبر ، فضلاً عن استمراره في بذل جهد متواصل منذ توليته الأمر في مصر عام ٥٦٤هـ وحتى وفاته في دمشق عام ٥٨٩هـ [٢] ، ولم يمنعه حتى المرض من متابعة العمل «وكان مع ذلك كله ، يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر ، يطوف على الأطلاب * ، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم قوة ضربان الدمامل» [٣] .

يقول بهاءالدين : «وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول -صلاح الدين- إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل» ويعلق بهاءالدين كعادته في سرد السيرة «وهذه عناية ربانية [٤] . وما أجمل هذا التعبير المؤثر ، الذي يرسل لنا رضاء الله على عبده صلاح الدين بتوليه رعايته وعنايته .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٨ .

(٢) نفسه ، ص ٤٠ ، ٤٦ .

* الطلب : لفظ كردي ومعناه القائد وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين ثم أصبح الكتيبة .

انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢٤ .

(٣) نفسه ، ص ٢٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فصلاح الدين من جبابرة الإرادة ، إرادة التحدي والمثابرة ، وتلك الإرادة لا بد فيها من الصبر .

ثم يعود الكاتب فيذكر لنا نبذة عن حلمه وعفوه ، ومحافظته على أسباب المروءة ، فقال : «لقد كان كثير المروءة ندي اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، ولا يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ، وإن كان كافراً» [1] .

ثم يتابع وصفه لصلاح الدين بقوله : «كان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسِيَرِهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها» [2] .

وأما القسم الثاني ، أو كما يسميه «تقلبات أحواله ووقائعه وفتوحاته في تواريخها» ، فإنه يوحي بأننا مقدمون على تفاصيل حياة البطل صلاح الدين الحربية ، ومعظم هذه الوقائع عاصرها المؤلف بنفسه لا سيما الفترة الأخيرة من حياته ، إذ كان ابن شداد مرافقاً له طيلة السنوات الست الأخيرة من حياتـــه .

يبدأ هذا القسم بدخول صلاح الدين مصر مع «أسدالدين شيركوه» لإعادة شاور * إلى الحكم بعد خلعه ، وقد أرسل نورالدين أسدالدين لنصرة شاور ، بينما شاور كان قد كاتب الصليبيين لنصرته ، مما أخاف الملك العادل نورالدين من هذه المحاولة ، فقرر إرسال أسدالدين إلى مصر وأمده بالجنود ، وعاد بعد ذلك . وفي العودة الثالثة التي قبض فيها على شاور وأعدم ، استتب الأمر لأسدالدين سنة ٥٦٤هـ ، وهي السنة التي مات فيها .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٣١ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤ .

* هو ، أبو شجاع ، شاور بن مجير بن نزار ، وزير مصر ، له قصة مشهورة اتصفت بالخيانة والغدر ، كما هو واضح في المتن ، كان له طموح زائد وطمع أودى بحياته ، حيث جاء توقيع يقول : لا بد من رأسه ، وجرياً على عادة المصريين مع وزرائهم جزّ رأسه وأنفذ إليهم» في يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسمائة .

انظر : - النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

- وفيات الأعيان ، مج ٢ ، ص ٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتابع الأحداث فيذكر بهاءالدين موت العاضد ، ووفاة والد صلاح الدين نجم الدين ، ويذكر تآمر الصليبيين على مصر ومحاولتهم غزو دمياط ثم الاسكندرية ، وفشلهم في ذلك .

ويواصل ابن شداد سرد ما حدث من خلافات بعد وفاة نورالدين محمود ، وخروج السلطان إلى الشام للاستيلاء على دمشق ، ومنحه حلب لأخيه الملك العادل * ، وكانت تلك الفترة التي مكثها السلطان في دمشق استعداداً لتجديد الكفاح ضد الصليبيين ، وتجميع القوات التي يمكنه أن يبدأ بها الجهاد ضدهم ، وهي فترة عصيبة واجهها السلطان صلاح الدين .

وقد أدرك صلاح الدين أن الجبهة الداخلية هي أولى ضمانات السلامة ، وقد علّق ابن شداد على هذا قائلاً : «إن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستمرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في إقامة قانون الجهاد» [1] .

ثم يتابع ابن شداد سرده التاريخي لفتوحات صلاح الدين رابطاً ذلك بواقع ديني عندما يقول : «وكان أبداً يقصد بوقائعه الجُمع سيما أوقات الصلاة ، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة» [2] ، فيذكر وقعة حطين، وأخذ قلعة طبرية ، وأخذ عكا ، وبيروت ، وعسقلان ، وكُللت تلك الانتصارات بتسلم بيت المقدس في ليلة الإسراء والمعراج سنة ٥٨٣هـ ، ويعلق الكاتب المؤرخ على ذلك بقوله : «انظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسّر الله عوده إلى أيدي المسلمين ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى» [3] ، لأن الله سبحانه

---

* الملك العادل ابن أيوب ، أبو بكر ، محمد بن أبي الشكر أيوب بن شاذي بن مروان ، سيف الدولة ، اخو السلطان صلاح الدين ، كان ينوب مناب السلطان في حال غيبته في الشام ، كان ملكاً عظيماً ذا راي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب ، حسن السيرة ، جميل الطوية ، وافر العقل ، حازماً في الأمور ، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها ، ولد بدمشق ، وتوفي فيها سنة ٦١٥هـ .

- انظر : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٧٤ ، ٧٨ .

(٢،١) النوادر السلطانية ، ص ٧٥ .

(٣) نفسه ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعالى أدرى بارتباطه العاطفي بمدينة الإسراء ، لذلك كوفئ بمثل هذا التوقيت المبارك ، ويقول بهاءالدين : «وكان -رحمة الله عليه- عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال» [١] .

ثم يواصل ابن شداد حديثه عن المعارك مع الصليبيين صغيرها وكبيرها ، فيذكر فتح صِهْيوَن [٢] ، واللاذقية ، وبكَاس [٣] ، وبَرْزَيَه [٤] ، ودربساك ، وصفد [٥] ، وكوكب [٦] ... ، ولما علم أهل أنطاكية بتوالي كل تلك الفتوحات طلبوا الصلح ، وراسلوه على ذلك ، فصالحهم على أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين عندهم .

ويتابع سرده فيصف بعض الأحداث المؤلمة ، كغرق إحدى السفن الحربية الإسلامية [٧] ، أو هزيمة المسلمين وخسارتهم من قتل بعضهم أو أسره [٨] ، وجميع ما يرويه الكاتب ، أحداث تاريخية ، ولكنها بأسلوب أدبي قصصي .

وينوع ابن شداد في هذا القسم ، فيذكر قصصاً أخرى متفرقة ، وأحداثاً هامة كوصول الرسل ، وذكر المنشورات وحريق المنجنيقات ، ووصول العساكر الإسلامية وما يلاقونه ، ويتخلل ذلك بعض النوادر . ولعل الجميل منها هي نادرة

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ .

انظر : ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، سنة ٥٨٣هـ ، ج١١، ص٥٢٩:٥٥٣ ،فيها تفصيل الفتوحات.

(٢) حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام من اعمال حمص .
انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٣) قلعة من نواحي حلب على شاطئ العاصي .
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٤ .

(٤) حصن على قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج بالحصانة ، فتحت سنة ٥٨٤هـ .
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

(٥) مدينة في جبال عاملة المطلة على حمص بالشام .
انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

(٦) اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية .
انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٩٤ .

(٧) النوادر السلطانية ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ لمعرفة تفاصيل الحادث .

(٨) نفسه ، ص ١٧١ ، ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العوّام «عيسى» ، الذي كان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على غرة من العدو ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وهو يمثل في عصرنا هذا الضفادع البشرية في الحرب البحرية الحديثة [1] ، ولكن عيسى أبطأ خبره ، «وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرّفنا بوصوله ، فأبطأ الطير ، فاستشعر الناس هلاكه ، ولما كان بعد أيام ، بينما الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً ، فافتقدوه فوجدوه «عيسى العوّام» ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة المجاهدين ، فما رؤي من أدّى الأمانة في حال حياته وقد أداها بعد وفاته ، إلا هذا الرجل ، وكان ذلك في العشر الأخير من رجب» [2] .

وتحدث بهاءالدين عن العساكر والمصالح ، والمراسلات ، واجتماع الملك العادل والانكتار * ، وعن خراب عسقلان ورحيل السلطان من الرملة ، واجتماع أهل الرأي من الأمراء بين يدي السلطان ، ووصية السلطان لابنه الظاهر ، وخروج قراقوش ** من الأسر ، ثم عودة السلطان إلى دمشق وعود العساكر الإسلامية إلى أوطانهم .

---

(١) جابر الشيال ، مجلة الكتاب العربي ، ع ٢٤ ،١٩٦٦م ، ص ٨٥ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ويمكن النظر إلى بعض النوادر الأخرى ، ص ١٠٨ ،١١٧ ، ١٥٧ .

* الانكتار : أو الانكيتر - هكذا يسمى في المراجع العربية المعاصرة للحروب الصليبية والمقصود هو الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا .

انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢٩ .

** هو ، أبو سعيد ، قراقوش بن عبدالله الأسدي ، كان خادم صلاح الدين ، اعتمد عليه السلطان في تدبير الديار المصرية ، حيث كان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية ، فهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ، وبنى القناطر ، كان حسن المقصد ، جميل النية ، وقع أسيراً وافتكّ نفسه بعشرة آلاف دينار ، تنسب له بعض الأحكام العجيبة ، وهي بعيدة الوقوع عنه ، لأن صلاح الدين كان معتمداً عليه في أحوال المملكة ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه ، ت ٥٩٧هـ ، بالقاهرة .

وقراقوش لفظ تركي ، يعني العقاب : الطائر المعروف .

انظر ترجمته في : - النوادر السلطانية ، ص ٢٣٩ . - مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

- الذيل على الروضتين ، ص ١٩ . - ابن خلكان ، ج ٤ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يتحدث عن وفاة السلطان صلاح الدين وقد أصابه كسل عظيم ، وغشيته حمى صفراوية أدت إلى اعتذاره عن الجلوس بين الأمراء والناس في الإيوان * وزاد عليه المرض ، إذ مكث فيه اثنتي عشرة ليلة إلى أن انتهى إلى غاية الضعف حيث أصيب برعشة وامتنع عن الطعام ، وبعد أيام قليلة خارت قوته ، واستشعر الأطباء نهايته ، حتى غاب ذهنه ، وكانت وفاته -رحمة الله عليه- بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع عشر من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وهو في السابعة والخمسين من عمره .

ويعقد في نهاية الكتاب فصلاً صغيراً عن المدن والحصون التي فتحت من عام ٥٨٣هـ إلى عام ٥٨٦هـ مثال ذلك كانطرطوس [١] - «دون أخذ برجها» بالسيف - ، وبيت جبرين [٢]، وشقيف أرْنُون [٣] ، والبيرة [٤] بأرض القدس .. وغيرها .

كما كان يوضح الموقع فيقول : «طبرية على بحر الأردن بالسيف» ، و«يافا بالسيف ، مدينتها» و«اللاذقية مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان» ، وأحياناً يوضح الطريقة التي تم فيها الفتح فيقول : «قلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف [٥] .. وهكذا .

---

* الإيوان والإوان : الصُّفَّة العظيمة ، غير مسدود الوجه ، يجلس فيها كبار القوم .. وهو أعجمي ومنه إيوان كسرى ، لسان العرب ، مادة أون .

(١) بلد من سواحل بحر الشام .
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) تقع بين بيت المقدس وغزة ، كان فيه قلعة حصينة خرّ بها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الفرنج.
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥١٩ .

(٣) شقيف أرنون ، وأرنون رجل إما رومي وإما افرنجي . الشقيف كالكهف ، وهو علة حصينة جداً في كهف من جبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل .
انظر : المعجم ، ج ٣ ، ص ٣٥٦ .

(٤) البيرة تقع بين بيت المقدس ونابلس ، خرّ بها الملك الناصر حين استنقذها من الفرنج .
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما عن مصادر ابن شداد ، فلا بد من الإشارة إلى ما ذكرناه سابقاً من أن ابن شداد يؤرخ في هذا الكتاب للسلطان «صلاح الدين» منذ مولده عام ٥٣٢هـ ، وحتى وفاته في سنة ٥٨٩هـ ، وقد التحق ابن شداد بخدمة السلطان صلاح الدين كما ذكر في مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة [١] واعتمد مصدرين ، استقى منهما معلوماته التي قام عليها الكتاب .

وعن مصدر معلومات ابن شداد عن الفترة الأولى من حياة صلاح الدين ، وهي الفترة الممتدة من مولده وحتى سنة ٥٨٣هـ ، فقد قال : «وما سطرت إلا ما شاهدته ، أو أخبرني الثقة به وحققته ، وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له ، وهو يسير ما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته ، وقدمت خدمته»[٢] ، فكان ابن شداد في القسم الأول من الكتاب ناقلاً عن سواه في الأغلب ، ولكنه يحاول أن يأخذ بأصح الروايات حسب الوسائل المتاحة له ، يقول : «وجميع ما حكيته قبل انما هو روايتي عمن أثق به ممن شاهده» [٣] أو «أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان» [٤] .

وأما القسم الثاني ، فابن شداد في الأغلب ، شاهد عيان ، يسجل ما يشاهده فيقول : «ومن هذا التاريخ ما أسطر إلا ما شاهدته» [٥] ، ويقصد من تاريخ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ ، وفي أغلب الأحيان كان يقول : «وأنا حاضرها» [٦] أو «ورأيته» [٧] ، أو «ولقد كنت أشاهد الناس» [٨] ، وحين تقع حادثة في غيابه ، ينص على ذلك صراحة ، مما يؤكد أمانته العلمية ، ودقته في التوثيق ، ووعيه لقيمة الشاهد كأن يقول «وهذه الوقعة لم أحضرها ، فإني كنت مسافراً ، وما

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٨٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤ .

(٣،٤) نفسه ، ص ٨٤ .

(٥) نفسه ، ص ٨٤ .

(٦) نفسه ، ص ١٨٨ .

(٧) نفسه ، ص ٧ .

(٨) نفسه ، ص ٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن نفسه في وقعة الرملة ، عندما يقول : «وشاهدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور» [١] .

وفي أحيان كثيرة ، يؤرخ القاضي بهاءالدين للأحداث التي شهدها مع صلاح الدين في السنوات الأخيرة بشكل دقيق ، فيحدد اليوم والشهر والسنة ، كقوله : «ولما كان يوم السبت التاسع من شوال من السنة المذكورة» وقوله بعد ذلك :«ولما كانت عشية ذلك اليوم» [٢] ، وفي مكان آخر يقول : «ولما كانت سحرة ليلة الجمعة سابع عشر في ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة» [٣] ، ويصل به محال التوثيق الدقيق في أن يقدر الساعة ، كقوله : «وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث» [٤] .

ويهتم كذلك بالجانب الإحصائي ، بكل موضوعية ، ويحاول أن يقدر عدد الأعداء بدقة من خلال أعداد الجيوش والمقاييس وغيرها . يقول في ذكر خبر القافلة المصرية التي اعترضها «ريتشارد قلب الأسد» الانكتار ، «وقتل من العدو مائة فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يُقتل من المسلمين معروف، سوى الحاجب يوسف وابن الصغير ، فإنهما استشهدا رحمهما الله» [٥] .

وعلى الرغم من محاولته الدقة والموضوعية ، فإنني أشعر في القليل من الأحيان بالمبالغة في الخسارة عند حديثه عن الافرنج والصليبيين ، وفي قلة الخسارة عندما يتحدث عن المسلمين ، مما لا يتناسب وحجم المعركة ، وعدد القتلى من العدو ، يقول في وقعة جرت في صور : «وجرى بينهم قتال شديد ، قُتل من العدو خمسة عشر نفراً ولم يقتل من المسلمين أحد ، وعادوا خائبين خاسرين ، ولله

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١١٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١١٩ .

(٤) نفسه ، ص ٥٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن نفسه في وقعة الرمل ، عندما يقول : «وشاهدت منها ما يشاهده مثلي ، وعرفت الباقي مثل ما يعرفه الحاضر في هذه الأمور» [١] .

وفي أحيان كثيرة ، يؤرخ القاضي بهاءالدين للأحداث التي شهدها مع صلاح الدين في السنوات الأخيرة بشكل دقيق ، فيحدد اليوم والشهر والسنة ، كقوله : «ولما كان يوم السبت التاسع من شوال من السنة المذكورة» وقوله بعد ذلك :«ولما كانت عشية ذلك اليوم» [٢] ، وفي مكان آخر يقول : «ولما كانت سحرة ليلة الجمعة سابع عشر في ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسمائة» [٣] ، ويصل به مجال التوثيق الدقيق في أن يقدر الساعة ، كقوله : «وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث» [٤] .

ويهتم كذلك بالجانب الإحصائي ، بكل موضوعية ، ويحاول أن يقدر عدد الأعداء بدقة من خلال أعداد الجيوش والمقاييس وغيرها . يقول في ذكر خبر القافلة المصرية التي اعترضها «ريتشارد قلب الأسد» الانكتار ، «وقتل من العدو مائة فارس على رواية ، وعشرة أنفس على رواية ، ولم يُقتل من المسلمين معروف، سوى الحاجب يوسف وابن الصغير ، فإنهما استشهدا رحمهما الله» [٥] .

وعلى الرغم من محاولته الدقة والموضوعية ، إلا أنني أشعر في القليل من الأحيان بالمبالغة في الخسارة عند حديثه عن الافرنج والصليبيين ، وفي قلة الخسارة عندما يتحدث عن المسلمين ، مما لا يتناسب وحجم المعركة ، وعدد القتلى من العدو ، يقول في وقعة جرت في صور : «وجرى بينهم قتال شديد ، قُتل من العدو خمسة عشر نفراً ولم يقتل من المسلمين أحد ، وعادوا خائبين خاسرين ، ولله

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١١٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١١٩ .

(٤) نفسه ، ص ٥٧ .

(٥) نفسه ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحمد »[١] ، كذلك قد شعرت في بعض الأحيان أنه يرسل الخبر دون إسناد كأن يقول : «ولقد حكى لي بعضهم»[٢] ، أو يقول : «ولقد بلغنا والله أعلم»[٣] ، أو يقول: «هكذا ذكر»[٤] .

ومن مصادره يقول الكاتب الحديث السيد الباز العريني : «إن ابن شداد قد استفاد في روايته للأحداث من بعض المؤلفات التاريخية ، ومن بعض معاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث ، ومنهم العماد الكاتب ، وكل من كتب عن الأحداث التي وقعت زمن صلاح الدين»[٥] ، وقد يكون ذلك صحيحاً لأن ابن شداد لم يتصل بصلاح الدين إلا في أخر سني حياته ويكون استفاد في توثيق تاريخه الذي نقله نقلاً عن رواة ، ومن كتب المعاصرين عن هذه الفترة .

وأما عن سنة تأليف الكتاب ، فيبدو أن القاضي بهاءالدين قد وضع الكتاب على شكل مسودات يومية ودوّن الحوادث وقت حدوثها ، بدليل دقتها وسردها التاريخي بالشهر واليوم -كما تقدم- وكذلك بكثرة تفصيلاتها الخاصة مثلاً بأعداد القتلى والأسرى ، وأسماء الناس والآلات ووصفها وغير ذلك[٦] من أمور .

ورتّب بهاءالدين الكتاب في وقت متأخر عن وفاة صلاح الدين ، يدلنا على ذلك ، تكرار الرحمة عليه ، فهو دائماً يقول : «رحمه الله» أو «رحمة الله عليه» وهذا وارد في جُلّ صفحات الكتاب .

كذلك ترحّمه على بعض الذين ماتوا بعد صلاح الدين ، مثل : «وكان الملك

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢١٠ .

(٢) نفسه ، ص ١١٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٩٠ .

(٥) مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٣ .

(٦) محمد درويش ، من كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٩ ، ص ١٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الظاهر والملك العزيز -رحمهما الله- بدمشق في خدمة والدهما »[1] ومعنى هذا ، أنه ألف الكتاب أو رتبه ونسقه بعد سنة ٦١٣هـ وهي السنة التي توفي فيها الملك الظاهر . وقد ورد في آخر باب في الكتاب نص يؤيد هذا القول : « آخره والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه ، ووافق الفراغ منه ثاني عشر رجب المبارك سنة ست وعشرين وستمائة على يد العبد الفقير إلى رحمة ربه وحسبنا الله ونعم الوكيل »[2] .

وعليه ، فإن الكتاب قد نسخ أيضاً في عصر المؤلف ، حتى إن الناسخ يقول : «طالعه من أوله إلى آخره ، أفقر العباد ، داعياً لمالكه بطول البقاء وعلو الارتقاء» لأنه توفي سنة ٦٣٢هـ ، فما بين عام ٦١٣هـ وعام ٦٢٦هـ وُضع الكتاب ترتيباً وتنسيقاً ونسخاً .

- **كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .. وفن السيرة :**

وأنا أتناول الكتاب ، لتقديم شيء عن ظروف تأليفه ومحتواه ، وتقسيمه المنهجي ، ومصادره التي اعتمدها ، وقد استرعى انتباهي المسميات المختلفة التي أُطلقت على كتاب «النوادر السلطانية» فهناك من سماه «السيرة اليوسفية» ، أو «سيرة صلاح الدين» أو «سيرة ابن شداد» ، وكلها أسماء تثير أسئلة كثيرة في ذهن الباحث ، ومن أهمها ، لماذا سمي كتاب «النوادر» بكتاب السيرة .. هل لأنه كتاب في التاريخ فسمّي مسماه «النوادر السلطانية» ، أم لأنه كتاب في السيرة ، فسمي «بسيرة صلاح الدين» ؟؟؟ وهل كان التاريخ بأحداثه هو الدافع الأول للكتابة ، فيكون تاريخياً أم كان الزمن الذي عاشه الكاتب بأحداثه المختلفة هو

---

(١) - النوادر السلطانية ، ص ٧٢ .

- الملك العزيز عمادالدين عثمان بن صلاح الدين ، ت ٥٩٥هـ

- انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٨٢ .

- الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين ، ت ٦١٣هـ

- انظر أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٩٤ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحور الذي ينسج حوله مواد تاريخه ؟ فيدخل تحت باب السيرة ، طالما أن هناك أحداثاً تصور أشخاصاً ، ويكون هذا الشخص هو الفرد النموذج بما يدور حوله من أحداث ، وبما يصنع من أحداث ، وهو فقط الذي يحظى باهتمام الكاتب فيشكل التاريخ حوله ، ويبني مادة كتابه ليكون البطل محورها . وفي الإجابة عن هذه التساؤلات ،لا يمكن الفصل بين التاريخ بأحداثه، والبطل الذي كان يصنع الأحداث، لأن الحس التاريخي «هو الأب المنجب للسير ، يوم كانت السير جزءاً من التاريخ ، ويوم كانت حياة الفرد تمثل جانباً هاماً في تصور الناس للتاريخ ، وإيمانهم بأن الفرد هو الذي يكيّف الأحداث ويرسم الخطط ، ويقوم بالتفكير والتنفيذ» [١] .

وفي سيرة السلطان ، نجد التاريخ هو الذي حرك الكاتب لتأليف هذه السيرة ، فبهاءالدين مؤرخ في الدرجة الأولى ، وأحداث التاريخ هي التي تشده ، وكانت هي المحور في الأغلب عند كتابته ، ولكن هناك نقطة هامة ، وهي أنه لم يردف ابن شداد السيرة بالحدث التاريخي فقط ، وإنما تجاوز عن ذلك باستحداث المواقف وتصوير الوقائع ، واستجماع الأحداث التي استقطبت اهتمام الناس ووجهت إليها الأنظار ، باعتبارها أحداثاً حاسمة ، ومواقف جريئة ، ومواقع حربية ارتبط بها مصير الأمة ، وتحددت بموجب نهايتها أسباب وجودها . لتعطي هذه الأحداث لصاحب السيرة قدرة التحرك ، ومجال التفوق ، وامتلاك ناصية تقرير المصير ، ليستطيع المؤلف من خلال هذه المواقف أن يمنح صاحب السيرة مظاهر البطولة ، ويضفي على أعماله ما يجعله متميزاً عن الآخرين [٢] لا سيما أن الكاتب قد عاش في فترة مليئة بالأحداث ، بل بالأحداث الكبار وهي فترة الحملات الصليبية إذ فيها «وقعت معركة حطين ، واستردّت القدس ، وعقدت الهدنة ما بين صلاح الدين ورتشارد قلب الأسد ، وفيها كانت نهاية البطل حين انتقل من عالم الشهادة إلى عالم الغيب» [٣] .. وغير ذلك من أحداث .

(١) د. إحسان عباس ، فن السيرة ، ط ٢ ، ص ٩ .

(٢) د. نوري حمودي علي ، دراسة في السير وأيام العرب ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ع ٢٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٤٨٠ (بتصرف) .

(٣) د. محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، ط ١ ، دار البشير ، عمان ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ملازماً لرجل من أكثر الرجال تأثيراً في الأحداث التاريخية في تلك الحقبة ، فحياة السلطان لم تكن حياة بيولوجية فقط واقعة بين ولادة وموت ، بل كانت بالإضافة إلى ذلك حافلة بالأحداث الجسام التي تركت أثراً واضحاً إلى الآن .

وقد كان تناول هذه الحياة أفضل وسيلة لتدوين تلك الفترة ، ولكن ليس بأسلوب المؤرخ ، خاصة بعد أن اتفقنا أن السيرة تاريخٌ من حيث تناولها حياة فرد له أهميته ، باعتباره موجهاً للأحداث في عصره ، ولكن هذا التناول يكون أدبياً بكل مضامينه ، متبعاً أسلوب التدرج القصصي لتقديم نموذج حي للمثل البطولي المتميز «وليس المقصود هنا أن نجعل البطل رمزاً تحريرياً للإنسان المبرّأ من كل عيب - إذ أن ذلك مخالف لطبائع الأشياء ، ومخالف لحقائق التاريخ» [1] بالإضافة إلى كونه ترسيخاً للقيم الاجتماعية والتقاليد القومية والخصائص الإنسانية ، وتصويراً للطرفة والنادرة التي تشد القارئ ويقصد من وراء هذا ربط السيرة بالتاريخ ربطاً يدرجها في مجال الحقل الأدبي كنوع من أنواع السِيَر ، وهو السيرة الموضوعية .

وطالما أننا اتفقنا على أن السيرة تعرض للفرد في نطاق المجتمع وتعرض لأعماله متصلة بالأحداث العامة ، فإننا نجد أن سيرة السلطان صلاح الدين عرض فيها الكاتب لشخصية صلاح الدين وحياته ، من خلال علاقته الوثيقة بالأحداث والمجتمع الإسلامي ، مازجاً السيرة بالتاريخ مزجاً قوياً ومتيناً ، مقدماً معلومات حقيقية واقعية ، ناقلاً صورة دقيقة لمعاني الحياة بكل ما فيها من مطامح وما يسودها من أوضاع ومشاهد ، مصوراً البطل المسلم صلاح الدين وحروبه مع الفرنج ، محللاً نفسيته ، معللاً أعماله وتصرفاته ، واصلاً إلى حقيقة أخلاقه ، مسجلاً الأحداث التي وقعت في عصره ، رابطاً بين سيرة صلاح الدين رجلاً حاكماً ، وبين صلاح الدين إنساناً عادلاً رحيماً ، وهنا نجد الكاتب قد مزج التاريخ بالتوجيه الخلقي الذي يسعى من ورائه لخدمة غرضه ، وهو خروج بطل قدوة تحلى بالصبر والشجاعة والكرم والسماحة والعدل ، لكي يظهر صلاح الدين مثالاً للحاكم

---

(١) د. محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، ط ١ ، دار البشير ، عمان ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسلم * ، وهذا هو المبدأ العام الذي تقوم عليه السيرة . وهو هدف الباحث الذي يسعى إليه باعتبار كتاب «النوادر السلطانية» كتاب سيرة .. والسيرة فنٌ أدبي محورها التاريخ . فهو إذاً كتاب تاريخ أدبي ، «يصنع فيه الكاتب حوادث التاريخ، مصوغة بأسلوب أدبي مؤثر ، «ويراعي كاتبها في صوغها ما يراعي في الكتابة الفنية من الالتجاء إلى الخيال في التصوير ، والاتكاء على التشبيه في التوضيح وعلى المجاز والاستعارة ، والتشبث بالزخارف والزينة اللفظية والمعنوية» [١] .

ويقول أحمد بدوي : «وفي هذا العصر الحافل بالانفعالات ، ظهر مؤرخون ، كتبوا تاريخهم بلغة أدبية فنية» [٢] . ويقول د. صالح العلي في ترجمة كتاب «علم التاريخ عند المسلمين» : «يمكن اعتبار النوادر السلطانية سيرة حقيقية لصلاح الدين» [٣] . فابن شداد ، كتب التاريخ بلغة أدبية فنية مؤثرة ، واعتنى بالحقيقة التاريخية واهتم في الوقت نفسه بالتعبير الفني كذلك [٤] .

وعليه فإن للكتاب قيمة عظيمة وأهمية كبيرة ، فهذا أبو شامة في مقدمة كتابه الروضتين ، يقول : «وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء والأكابر الفضلاء ، كالقاضي بهاءالدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي الذي عرف بابن شداد ، قاضي حلب ، فقد كتب مجلدة في الأيام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح ، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله» [٥] .

وأبو شامة يعتمد على ابن شداد كثيراً ، وهذا واضح في أكثر صفحات

---

* هناك صورة تحليلية كاملة «عن شخصية القائد» انظر كتاب : حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، ص ٣٨ .

(٢،١) أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط ٢ ، دار النهضة ، القاهرة ، ص ٥٤٠ .

(٣) فرانزروزنثال ، ترجمة صالح أحمد العلي ، علم التاريخ عند المسلمين ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ص ١٤٦ .

(٤) عمر عبدالرحمن الساريسي ، نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية ، دار المنارة للنشر والتوزيع ، السعودية ، جدة ، ص ١٥٥ .

(٥) الروضتين ، ص ٤ ، ٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكتاب مثال ذلك عندما يقول : «في فتح حلب ، قال بهاءالدين ...» [١] .

وفي رجوع السلطان إلى دمشق يقول : «قال القاضي ابن شداد ...» [٢] ، وكذلك ابن واصل الذي اعتمد على ما سبقه من المؤرخين المعاصرين ، يقول كثيراً : «وحكى القاضي بهاءالدين ....» [٣] .

وفي كتب العصر الحديث ومؤلفاته ، يحتل كتاب «النوادر السلطانية» مكاناً كبيراً من حيث الاعتماد عليه كمصدر هام في فترة الحروب الصليبية ، ولمعرفة كل الحقائق التاريخية عن تلك الفترة يقول الشيال : «اعتبرت هذه السيرة أوثق المراجع للتاريخ لحياة البطل صلاح الدين ، وعليها اعتمد جُلّ المؤرخين اللاحقين من عرب وأوروبيين [٤] عند الكتابة عن حياة صلاح الدين وخاصة الفترة الأخيرة من هذه الحياة ، وهي فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين» [٥] .

وهذا مؤرخ أو كاتب في التاريخ العربي يقول في كتابه «المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين : «يندر العثور على مصدر تاريخي لأي أمير من أمراء العصر الوسيط يشبه في قيمته التاريخية السيرة الصلاحية لابن شداد» [٦] .

وهذا «دريد عبدالقادر نوري» وهو كاتب في التاريخ في العصر الحديث يقول : «إن كتاب النوادر السلطانية ، احتل مركز الصدارة بين المصادر العربية المعاصرة لصلاح الدين» [٧] ويتابع : «إن كتاب النوادر السلطانية كان من أهم المصادر التي اعتمدتها في رسالتي» [٨] .

---

(١) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٢) الروضتين ، ج ٥ ، ص ٥٠ ، وانظر ص ٥٥ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٩٢ ، ١٢٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥٨ .

(٣) مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٩ ، ويمكن النظر في مجمل صفحات الكتاب .

(٤) Lane-Poole, Stanley Lane-Poole, "Saladin and The History of the Kingdom of Jerusalem, Beirut, 1964.

(٥) النوادر السلطانية ، مقدمة المحقق ، ص ١١ .

(٦) نظير سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ٦٢م ، ص ١٩ .

(٧) دريد عبدالقادر نوري ، سياسة صلاح الدين في بلاد مصر والشام والجزيرة ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ٧٦م ، ص ٣١ .

(٨) دريد عبدالقادر نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٣١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول العريني : «كل المؤرخين الذين درسوا حياة صلاح الدين ، جعلوا الأهمية الأولى لمصدرين عربيين ، الأول ، واسمه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، والثاني الكامل للمؤرخ عزالدين بن الأثير» [١] .

وهذا المؤرخ «شاكر مصطفى» يقول أيضاً : «ويعتبر كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية من أهم المصادر عن حياة صلاح الدين» [٢] .

من الغربيين نرى س. لين بول في كتابه «صلاح الدين وتاريخ بيت المقدس» ، يركز كثيراً على كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» . وقد وقعت على مقالة بعنوان «صلاح الدين الأيوبي في رأي مؤرخ أوروبي» وفيها يذكر اسم بهاءالدين كثيراً ويعرّف به ويعتمد كتابه ، والمقالة تصف الأيام الأخيرة من حياة صلاح الدين ، ومن ضمن أقواله «وفي يوم الجمعة الموافق ٢٠ من فبراير عام ١١٩٣ خرج صلاح الدين ممتطياً صهوة جواده للقاء الحجيج يرافقه «بهاءالدين» ، ولم يكن نشيطاً في الأيام الأخيرة [٣] .

وفي مكان أخر من المقال يقول هذا الكاتب الأوروبي : «قال عنه بهاءالدين : «وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط» .

كذلك نلاحظ في مقاله وصفاً لبهاءالدين بن شداد، بأنه أمين سر صلاح الدين، وهو السكرتير الشخصي له وهو الصديق أيضاً ، وكلها ترادفات وجدناها في كتاب «حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها» عندما قال الكاتب واصفاً بهاءالدين وعلاقته بصلاح الدين ، «كان اتصاله وثيقاً به ، بوصفه قاضياً ، ورفيقاً وعالماً ومكلفاً القيام بمهمة كبيرة» [٤] . وهذه علاقة متينة استند عليها علماء وأدباء العرب والغرب وأقاموا عليها دراساتهم واستخلصوا نتائجهم . ويكفي من قيمة الكتاب أنها أكسبت مؤلفه هذه الشهرة ووضعته في صفوف المؤرخين الكبار .

---

(١) السيد الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ١٩٨ .

(٢) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٧٩م ، ج ١ ، ص ٣٧٠ .

(٣) محمد حسين، مجلة المجلة ، مقال بعنوان «صلاح الدين في رأي مؤرخ أوروبي ، ع ٢٠ ، ٥٨م ، ص ١٦ ، ٢١.

(٤) د. محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخيراً ، بقي أن نقول ، إن كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» هو الكتاب الوحيد المطبوع من كتب ابن شداد ، وتوجد منه عدة مخطوطات في مكتبات العالم ، ذكرها(بروكلمان) كما يلي :

- برلين ٩٨١١ ، ليدن ٩٦٧ ، المتحف البريطاني أول ١٦٣٠ ، بودليان ٥٨٨/١ ، ١٣٥/٢ ، باريس أول ٦٧٣١ ، بازل مكتبة المدينة بوهار ٢١٦» [١] .
- نشرة شلتنس في ليدن سنة ١٧٣٢ ، ثم سنة ١٧٥٥ ، وطبعت نشرة شلتنس بعد ذلك في بينا بألمانيا سنة ١٧٩٠ . ثم نشرة دي سلان مع ترجمة فرنسية من ص ١ : ص ٣٧٤ من الجزء الثالث من كتابه تاريخ الحروب الصليبية» [٢] .
- وطبع كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» بالقاهرة سنة ١٣١٧ ، وقد ترجمه كوندر إلى الانكليزية [٣] .

والطبعة التي بين أيدينا ، طبعة محققة تحقيقاً جيداً ومتقناً ، قام به الدكتور «جمال الدين الشيّال» وهو عالم معروف مختص بتاريخ تلك الفترة .

ثانياً : الكتب الدينية

١ - كتاب «دلائل الأحكام» :

كان لبهاء الدين بن شداد اتصال وثيق بعلم الحديث ، مكنه من أن يضع كُتباً عن الأحاديث المستنبطة منها الأحكام ، فكان منها كتاب «دلائل الأحكام» الذي ما زال مخطوطاً في المكتبة الأهلية في باريس تحت رقم ٧٣٦ [٤] ، ومنه مخطوط في المكتبة الأحمدية بحلب [٥] ، وفي المكتبة الخاصة بالوثائق والمخطوطات في الجامعة

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، بروكلمان ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٣ .

(٣) - النوادر السلطانية ، مقدمة المحقق ، ص ٩
- تاريخ الأدب العربي ، ص ١٣ .

(٤) بروكلمان ، ج ٦ ، ص ١٣ .

(٥) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأردنية تحت رقم (٥٠) .

عدد صفحاته ثلاثمائة وخمسون صفحة ، وقد وردت في مقدمة المخطوط سنة تأليفه وتاريخ نسخه .. يقول الناسخ : «حدثنا القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم أدام الله بركته ورضي عنه وأرضاه ، مناولة من يده وبعضه قراءة عليه في شهر محرم سنة تسع وعشرين وستمائة بمحروسة القاهرة» .

وهذا التاريخ يؤكد نسخ الكاتب هذه النسخة لأنه لم يقم في مصر إلا مدة قصيرة لا تتجاوز السنة ، وفيه يقول ابن خلكان «فسافر في أول سنة تسع وعشرين أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وعاد وقد جاء * بها في شهر رمضان من السنة» . وعليه فإنه وضع الكتاب في تاريخ سابق ، ثم أملاه بحياته في القاهرة ، بدليل دعوة الناس له بالبركة والرضا .

اختلفت بعض المصادر في مسمى الكتاب فمنهم من قال : «دلائل الأحكام من أحاديث النبي عليه السلام» [١] أو «دلائل الأحكام على التنبيه» [٢] والصواب أنه «دلائل الأحكام» دون زيادة ، وهذا ما جاء في المخطوط وطابق ذكره في مصادره [٣] .

وأما عن سبب تأليف الكتاب فإنه يقول : «لما رأيت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هي أدلة غالب الأحكام ، وأن الفقهاء قد شحنوا بها كتبهم

---

* ويقصد العروس ابنه الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب .
انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٩ .

(١) حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٧٥٩ .

(٢) مجيرالدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٣) - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٠٠ .
- ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
- ابن الجزري ، غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
- السبكي ، الطبقات الكبرى ، ص ١٥٢ .
- الأسنوي ، الطبقات ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- اليافعي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
- الأعلام ، الزركلي ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .
- دائرة المعارف ، مج ٣ ، ص ٢٥٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصانيفهم ، ولم ينتبهوا على الصحيح منها والحسن والغريب * ، ولم يشيروا إلى أي كتاب تضمنها ولم يشرحوا غريبها ، رأيت أن أجمع كتاباً يجمع بين التنبيه على الحديث في أي كتاب ذكر ، ومن اتفق على نقله من أئمة الحديث المشهورين ، وأنبه على أنه صحيح أو حسن أو غريب **» .

ثم يتابع الكاتب كلامه ويوضح منهجه : «ورأيت أن أضعه على أبواب الفقه ليسهل على المتعلم مطالعته وحل الإشكال منه» .

جاء المخطوط في مجلدين ، يحتوي كل مجلد منها على خمسٍ من الكتب «الأبواب» ، وهذا أيضاً ما ذكرته المصادر ، إلا كتاب «غاية النهاية» لابن الجزري ، فقد قال : «وصنّف كُتباً من ذلك كتاب «دلائل الأحكام في أربع مجلدات [١]» . ولم يذكر ابن الجزري مؤلفاً آخر لبهاءالدين . وكتاب «سير أعلام النبلاء» أيضاً قال : إنه في أربع مجلدات كذلك [٢] .

وفي مقدمة الكتاب يوضح الكاتب معاني الحديث الصحيح والحسن والغريب، تسهيلاً على الدارس أو القارئ ، قاصداً ، تقييم الحديث أمام القارئ واعتماده لا سيما إن كان نوع الحديث ضعيفاً .

---

* - الحديث الصحيح : «هو ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة» بمعنى آخر : هو ما اتصل سنده برواية الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه من غير شذوذ ولاعلة .

- الحديث الحسن : ما اتصل سنده بعدل خف ضبطه من غير شذوذ ولا علة ، فيشترط فيه أصل الضبط وليس الضبط التام .

- الحديث الضعيف : هو كل حديث لم تجتمع فيه صفات القبول ، وقال أكثر العلماء هو ما لم يجمع صفة الصحيح والحسن .

انظر : - مخطوط دلائل الأحكام ، ص ١ .

- محمد عجاج الخطيب ، أصول الحديث علومه ومصطلحه ، ط ٢ ، دار الفكر ، ٧١م ، ص ٣٠٤ ، ص ٣٣١ ، ص ٣٣٧ .

** غريب الحديث يراد به بعيد المعنى غامضه ، لا يتناوله الفهم إلا عن بُعدٍ ومعاناة فكر .

انظر في كتاب «غريب الحديث» للإمام أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي ، ت ٣٨٨هـ ، تحقيق الفرباوي ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، السعودية .

(١) ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٢) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويركز على هذه النقطة كثيراً ، حيث يصنف الكاتب الحديث فيقول : «أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح» .

ويقول في بعض الأحيان أخرى «وقد ضعّف البخاري هذا الحديث» ، أو يقول: «هذا حديث غريب» ، وهذا هو الأساس المنهجي الذي اعتمده .

أما عن محتوى الكتاب ، فهو أحاديث عامة ، نستخلص منها الأحكام الواجب معرفتها وتطبيقها ، ويبدأ (بالطهارة) ، فقد تحدث فيها عن الوضوء وأسبابه ، وثوابه ، وعن الغسل ، ووجوبه وكيفيته ، وعن الاستحاضة وأحكامها ، وعن التيمم وكيفيته ، وعن النجاسات وكيفية إزالتها [١] .

ثم تحدث عن (الصلاة) وفضلها وعقاب تاركها وبيان وجوبها ، وعن مواقيتها والحث على أول الوقت في أدائها ، ثم عن الأذان وفضله ، وشروط قبول الصلاة ومبطلاتها ، وعن صفتها وهيئتها ، وصلاة التطوع وفضل الجماعة كذلك ، ومن هو أولى بالإمامة ، وقد استرعى انتباهي عندما قال بهاءالدين : «إن السلطان أولى بالإمامة من صاحب المنزل وإمام المسجد بالجمعات والأعياد» لتعلق هذه الأمور بالسلاطين ، وفي هذا تفنيد للأحكام الخاصة بهم تسهيلاً عليهم وتقديراً لهم وبراعة منه .

ثم يتابع حديثه عن فضل الصف الأول للرجال وفضل الصف الأخير للنساء ، وعن تسوية الصفوف ، وعن صلاة الخائف والمسافر ، وعن قيام شهر رمضان ، وعن كيفية صلاة الكسوف والاستسقاء ، وأخيراً تحدث عن المحتضرين والجنائز [٢] .

ثم يتحدث عن (الزكاة) ووجوبها ، وفيما تجب من أموال وبهائم وثمار وخضروات وتجارة ، وركز على كراهية الصدقة للنبي وأهل بيته ومواليه ، وتحدث عن صدقة الأولاد والأقارب وصدقة المرأة من بيت زوجها [٣] .

---

(١) مخطوط دلائل الأحكام ، ق ١-٣٢ .

(٢) نفسه ، ق ٣٢-١٣٧ .

(٣) نفسه ، ق ١٣٧-١٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاء إلى (الصوم) وقال بوجوبه ، وضرورة رؤية الهلال والشهادة عليه ، وفضل السحور وتعجيل الفطور ، ونية الصوم من الليل ، والصوم عن الميت ، وصوم شعبان وست من شوال ، وتحدث عن صوم التطوع والاعتكاف [١] .

وأخر كتاب في المجلد الأول هو (المناسك) ، وقد تحدث فيه عن الحج وفضله ، والعمرة كذلك ، وجواز تقديمها على الحج ، وقال في النيابة في الحج ، والإحرام والتلبية والوقوف بعرفة ورمي الجمار والحلق ، وترتيب أعمال يوم النحر ، وخص الحائض والنفساء بفصل من الكتاب ووضح الأحكام أثناء تأدية الفريضة [٢] .

وفي المجلد الثاني من كتاب «دلائل الأحكام» يتحدث المؤلف أولاً عن (البيوع) ويقول في إباحة التجارة ، والحث على الصدق في البيع والسهولة فيه ، وتكلم عن الربا و وعيد أكله ، والاحتكار وبيع الثمار قبل أن يبدو أصلها ، وفي التوكيل والاستئجار ، والوقف للأقارب ، والهبة والوصية والميراث [٣] .

ثم يأتي باب (النكاح) ، حيث هو من أهم الأمور في حياة الناس ، وفيه تتحقق سنة الكون ، فهو يرغب في النكاح ويقول بضرورة إعلانه ، ورؤية المرأة المخطوبة ، مع وجود الولي ، فلا نكاح دون ولي ، وركز على الشهود ، والقول في الصداق والوليمة ، وفي الزواج بأكثر من واحدة ، وبضرورة القرعة بين النساء ، وفي تخصيص الجديدة ، وفي الحقوق الزوجية الخاصة بالرجل والمرأة ، وتحدث عن الطلاق ، والظِّهار ، واللعان ، والرضاع ، والنفقة [٤] .

ويأتي كتاب (الجنايات والحدود) ، وقد تحدث فيه عن القصاص ، والدّية ، وقتال أهل البغي ، وفي عقوبة سب النبي الكريم ، وتحدث عن حد الزنا ، والسرقة، وشرب الخمر ، والقذف [٥] .

---

(١) مخطوط دلائل الأحكام ، ق ١٣٩-١٦٧ .

(٢) نفسه ، ق ١٦٧-١٩٤ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ق ١٩٤-٢٣٧ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ق ٢٣٨-٢٧٦ .

(٥) نفسه ، ج ٢ ، ق ٢٧٦-٣٠٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدث عن (الجهاد) وفضله ، وعن الإمارة في الحرب ، والغنيمة وتقسيمها ، والمهادنة ، والجزية ، والفيء وأحكامه ، ولم يستطرد الكاتب فيه كثيراً ، حيث خصّه بكتاب اسمه «فضائل الجهاد» وسنأتي إلى عرضه [١] .

وأخيراً تحدث عن (الإمارة) وأحكامها ووجوبها ، والحث على العدل في الولاية ، والرفق بالرعية ، والقول في البيعة والاستخلاف ، وفي القضاء وأحكامه ، وأهمها : «لا يقضى حتى يسمع من الخصمين» ، والقول في البينة على المدعي واليمين على من أنكر .

وتحدث عن (الشهادة) وأحكامها ، وعدد الشهود وأكثرها عدد شهادة الزنا ، وشروط قبول الشهادة ، وركز على القول بأن اليمين على نية المستحلِف وهي من الأمور التي لا تلاعب فيها [٢] .

هذه عشرة أبواب عرضها الكاتب مفصلة واسعة شاملة ، استقى فيها الكاتب مادته من كتب الأحاديث وشروحها ، يقول : «وما منها كتاب إلا ونقلته من طريق أو طريقين أو عدة طرق وبعضها قراءة وبعضها سماعاً وأقلها إجازة» . ودائماً يذكر السند كعادته في التوثيق ، وفي أحيان يذكر أكثر من سند مع التصنيف . كقوله: «أخرجه أبو داود في سننه والترمذي في جامعه» . كما كان من مصادره كذلك كتاب (الاستيعاب) * ، وكتاب (الإكمال) ** كأن يقول عند حديثه عن عماره وهو يروي كراهية رفع اليدين في الخطبة «وذكر ذلك كله في الإكمال» أو أن يقول : «وجاء ذكره في الاستيعاب» وذلك عند حديثه عن شُريح بن هانئ ، مع كتب الصحاح والسنن .

---

(١) مخطوط دلائل الأحكام ، ج ٢ ، ق ٣٠٣-٣٢٧ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ق ٣٢٧-٣٤٥ .

* كتاب الاستيعاب في معرفة الصحاب ، لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبرّ ، ت ٤٦٣هـ ، تحقيق علي محمد البجادي ، مكتبة النهضة ، مصر ، ج ٢ ، ق ٧٠٢ (يقابلها ق ١٢ من المخطوط) .

** كتاب الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكف والأنساب ، للأمير الحافظ ابن ماكولا ، ت ٤٧٥هـ ، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني ، أمين مكتبة الحرم المكي ، ط ٢ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند ، ق ٢٧١ (ورد فيه النص يطابق النص ق ١٠٢ من المخطوط) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو بحثنا في أثر الكتاب بين الكتب ، لوجدنا أثره محصوراً لأنه ما زال مخطوطاً ، وهذا لايعني أن ليس للكتاب من أثر ، حيث إن أثره يكمن في قيمته وأهيمته ، فكتاب «دلائل الأحكام» له من القيمة ما يجعل الباحثة تعده موسوعة دينية حياتية شاملة ، فكما رأينا عند عرض محتوى الكتاب ، تناول الكاتب كل الأمور والفروض والشرائع والقوانين العامة والخاصة في حياة الناس حتى صغائرها .

ولقد عرض الكاتب للأحكام الشرعية ، كل حسب أهميته ودوره ، وفصّل في الأغلب الجزئيات التي يحتاجها الحكم الشرعي ، وعرضها بسهولة وبساطة ، وكذلك جاء بالأحاديث المختارة في تقرير الأحكام المتناولة في العرض سلسة سهلة لا تعقيد فيها ولا غموض .

وكان التوازن هو الأساس الذي قام عليه الكتاب ، فأمام نسيان الصلاة يذكرنا بقول الله تعالى : «وأقم الصلاة لذكري» [1] ، وأمام وصف الجنة يصف النار، وأمام أيام الجفاف يعلّمنا صلاة الاستسقاء ، وأمام الفقر يذكر الصدقة .. ومجمل القول أن القارئ لا يشعر بأن كتاب «دلائل الأحكام» كتاب ديني فحسب ، وإنما هو كتاب ثقافي دقيق ، أحسن فيه الكاتب الاختيار من حيث الموضوع صاحب القيمة الدينية والاجتماعية والثقافية لذاك العصر ولغيره من العصور اللاحقة ، وقد عالجه بأسلوب رصين .

وعرضه للمحتوى المعرفي الذي قدمنا له ، يجعلنا نقيّم الكتاب ، لا سيما أنه أثناء عرضه لمادته ، كان يصنف الأحاديث كما ذكرنا ويستخلص منها بعض الفوائد، وقلة هي الأحاديث التي لم يفنّدها .

---

(١) القرآن الكريم، سورة طه ، آية ١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما نجد في كتابه شرحاً لغوياً لكثير من غريب المفردات [١] ، ونجده يُعرّف بالأشخاص والأماكن [٢] أيضاً كما أننا نصل معه أثناء قراءتنا إلى استنتاجات توضح لنا بعض الأمور التفسيرية [٣] ، ونتعرف كذلك على آراء الشافعية والمذاهب الأخرى [٤] .

كما نتطلع إلى معلومات عامة ، ونقرأ آيات من كتاب الله ، ونأخذ معلومة عن سبب نزول بعض الآيات [٥] .

ونتعلم من الكتاب الدعاء وقت الحاجة والمرض ، ونتقن فن البرهنة والدليل من خلال تعلمنا له عندما يستخدمه الكاتب في إثبات قضية معينة في أحاديثه [٦] . كما نحسن تحليل الأحاديث وترتيب فوائدها وتحديد كتبها الأصول ، ونتعرف على أئمتها أيضاً .

وفي الكتاب الكثير ، لذلك نقول : إن كتاب «دلائل الأحكام» من أهم الكتب الدينية العامة .

---

(١) المخطوط ، ق ١٠ ، وذلك في حديثه عن الوضوء : حيث ذكر قول رسولنا الكريم : «قال ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات ، قالوا : بلى يا رسول الله ، قال إسباغ الوضوء .....» ثم يتحدث عن إخوانه الذين يأتون بعده ، ووصفهم بأنهم يأتون يوم القيامة غُراً محجلين من آثار الوضوء ، فيقول الكاتب بهاءالدين : وقوله غُرٌ ، بضم الغين وهو جمع أغر ، وهو الفرس الذي في وجهه بياض ومحجلين ، التحجيل : بياض في قوايم الفرس ، فشبه البياض من آثار الوضوء بالتحجيل في الفرس .

(٢) انظر المخطوط ، ق ٥٦ ، وذلك عندما يصف القبلة وكيف يستدل عليها أهل المشرق : «ومما يستدل به أهل المشرق على القبلة القطب الشمالي ، وهو نجم صغير ، في بنات نش الصغرى بين الفرقدين والجدى» .

(٣) انظر المخطوط ، ق ١٣ وذلك عند حديثه عن طالب العلم وقول إن الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم (بما معناه) فما المقصود هل هو الإعانة ، أم هو التواضع لعظيم شانه ، أم المراد به نزول الملائكة في مجالس العلم لتحصل بهم البركة ، بدليل قوله عليه السلام «ما من قوم يذكرون الله إلا حفّت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» .

(٤) انظر المخطوط ، ق ٤ ، ٥ .

(٥) انظر المخطوط ، ق ٥٧ ، وذلك عند الحديث عن بطلان الصلاة ، فقال أولاً تحريم الكلام ، فاورد حديثاً عن زيد أن قال : «كنا نتكلم خلف رسول الله .. يكلم الرجل منا صاحبه إلى جانبه» حتى نزلت «وقفوا لله قانتين» فأمرنا بالسكوت .

(٦) وذلك في قضية قراءة الفاتحة في الصلاة والخلاف حولها عند بعض الفقهاء ، ق ٦٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢ - كتاب «دروس في الحديث» :

من الغريب حقاً أنني لم أجد في أغلب المصادر القديمة والمراجع الحديثة * ، التي اعتمدناها عند دراستي لحياة الكاتب بهاءالدين شيئاً يذكر عن هذا المؤلف ، علماً بأن أغلب المصادر ذكرت أثناء عرضها لسيرة بهاءالدين شيئاً عن مؤلفاته ، وبعضها ذكرت كل مؤلفاته (١) .

وقد اعتبر «جمال الشيّال» كتاب «دروس في الحديث» من ضمن مؤلفات القاضي بهاءالدين وأشار إلى كتاب تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، وإلي وفيات الأعيان في هامشه ، توثيقاً لما جاء به (٢) .

وبعد البحث ، لم نعثر في كتاب «وفيات الأعيان» على أي شيء يتحدث أو يدل على الكتاب ، أو حتى عن وجوده أصلاً واعتباره من مؤلفات ابن شداد . وكل ما ذكره ابن خلكان عن إقامة القاضي بهاءالدين في مصر «ان ابن شداد ألقى هذه الدروس في القاهرة وإنه تجهّز إلى الديار المصرية لإحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب ، وكان قد عُقد نكاحه عليها ، فسافر في أول سنة تسع وعشرين أو أواخر سنة ثمان وعشرين وستمائة» (٣) .

---

* ذكر الكتاب ، السيد الباز العريني ، في «مؤرخو الحروب الصليبية» ، ص ٢٠٢ .

(١) - وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٧ .
- الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .
- سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٨٤ .
- طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- الشذرات ، ج ٢ ، ص ٥٥ .
- غاية النهاية ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ .
- السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٠ .
- البداية والنهاية ، ج ١٣ ، سنة ٦٣٢هـ .
- الأعلام ، ج ٨ ، ص ٨٣ .
- معجم المؤلفين ، ج ١٣ ، ص ٢٩٩ .

(٢) النوادر السلطانية ، مقدمة المحقق ، ص ٨ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يذكر بأن هذا الكتاب «دروس في الحديث» كتاب وضعه أثناء إقامته بالقاهرة عندما ذهب في مهمته تلك . وعند الاطلاع على كتاب «تاريخ الأدب العربي» وفهارس المخطوطات ، وجدنا هذا المؤلف ومكانه في بودليان-اكسفورد ، تحت رقم ١٠١١٧.٣ ، وبالفعل أرسل في طلبه ، وتمكنا من الحصول عليه ، وتبين من أول سطر فيه بأنه لشيخنا بهاءالدين ، جاء في المخطوط : «حدثنا القاضي أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم أعاد الله من بركته ورضي عنه وأرضاه مناولة من يده وبعضه قراءة عليه في شهر محرم سنة تسع وعشرين وستمائة بمحروسة القاهرة» [١] ، فهذا تاريخ تأليف الكتاب ونسخه أيضاً .

ولعل السبب في عدم ذكر كتاب «دروس في الحديث» من ضمن مؤلفات ابن شداد في المصادر القديمة ، يعود إلى عدم ذكره في كتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان تلميذه ، الذي خصه بترجمة واسعة ، تناول حياة قاضيه وشيخه بكل تفاصيلها،ولكنه لم يذكر هذا الكتاب من ضمن تصانيفه .

وأما سبب تأليف الكتاب ، فيقول المؤلف في المقدمة : «فلما رأيت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هي أدلة أغلب الأحكام ، وأن الفقهاء قد شحنوا بها كتبهم وتصانيفهم ، ولم ينتبهوا على الصحيح منها والحسن والغريب ، ولم يشيروا إلى كتاب تضمنها ، رأيت أن أجمع كتاباً يجمع بين التنبيه على الحديث في أي كتاب ذكر ، وأنبّه على أنه صحيح أو حسن أو غريب» وهذا بالضبط هو السبب نفسه الذي ألف لأجله كتاب «دلائل الأحكام» ومصادره هي كتب الأحاديث التي نقلها بعدة طرق إما قراءة أو سماعاً أو إجازة ، كما اعتمد أيضاً كتاب «الاستيعاب» [٢] كثيراً لأنه يقول دوماً : «ذكره في الاستيعاب» . ويقول : «ورأيت أن أضعه على أبواب الفقه ليسهل على المتعلم مطالعته وحل الإشكال فيه» [٣] .

---

(١) مخطوط «دروس في الحديث» ، الورقة الأولى .

(٢) انظر مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ٣ ، ٧ .

(٣) انظر مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما عن محتوى الكتاب ، فقد جاء بمجموعة أحاديث قدسية ، وعرضها في بابين : الأول عن «الوضوء» وأسبابه وصفته وثوابه ، والثاني تحدث فيه عن «الصلاة» وفضائلها وبيان وجوبها وعقاب تاركها وضرورة المحافظة عليها وأدائها في وقتها ، وقضائها إذا فات وقتها ، وتحدث فيه عن الأذان وأجر المؤذن .

ويقع المخطوط في عشرين صفحة من الحجم الكبير ، ويبدو أن الكاتب اعتمد فيه على كتاب «دلائل الأحكام» الذي أُلف قبل كتاب «دروس في الحديث ، وإن كان قد نسخ في القاهرة ، فبهاءالدين لم يقم بالقاهرة إلا خلال المسؤولية الهامة التي جاء للقيام بها ، فالوقت لا يسمح بوضع كتابين .

وكتاب «دروس في الحديث» على ما يبدو كانت محتوياته دروساً تُلقى ، لا سيما وأن مهنته التدريس ، ثم دونت بعد ذلك ورتبت على شكل كتاب قائم على بابين . واختار المدرس بهاءالدين من كتاب «دلائل الأحكام» الأمور المهمة والضرورية التي تستوعب وقت إعطاء الدرس والتي يمكن من خلاله الاستشهاد بأحاديث وآراء وشروح مفيدة ومؤدية للغرض .

فقد قصر حديثه على الطهارة والصلاة، دون أن يستطرد أو يكثر من الحديث، لذلك يقول : «مع الاختصار عن التطويل المنفع من التحصيل ، لا سيما لأنباء الزمان المجبولين على السّامة والتعطيل» [1] ، وهذه هي سمات المدرس الجيد والدرس المفيد .

وفي هذا دليل على كون «دروس في الحديث» كتاباً منفصلاً خاصاً أو منفرداً، وليس جزءاً من كتاب «دلائل الأحكام» ومن الثابت أيضاً أن ابن شداد قد درّس الحديث في مصر وأن الحافظ المنذري قد أخذ عنه سنة ٦٢٩هـ [2] .

وأما عن أثر الكتاب ، فلا يبدو له من أثر واسع لأنه ما زال مخطوطاً ، ولكن أثره يظهر لقارئه ، فهو يتعرف من خلاله على بعض معاني المفردات الغامضة . مثال ذلك ، عندما يتحدث عن الطهارة يذكر حديثاً «لا يقبل الله صلاة بغير طهور ،

---

(١) مخطوط ، دروس في الحديث ، ق ١ .

(٢) التكملة ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا صدقة من غُلول» وهنا نجد الكاتب يلفت نظر القارئ بقوله «وغريبه غُلول بضم الغين وهو سرقة المال» [١] .

كذلك يُعرف القارئ بتصنيف الحديث حتى تطمئن نفسه فهو يقول : «وقال الترمذي ، هذا الحديث أصح ما في الكتاب» [٢] .

ويقول في مكان آخر «ومن لم يصلِّ ركعتي الفجر ، فليصلّهما بعد ما تطلع الشمس » قال البغوي : وهو حديث غريب [٣] .

كذلك يطرح أموراً مهمة ويحاول إيضاحها وتقديم الفائدة منها للقارئ بعد روايتها من أكثر من مصدر . مثاله عند حديثه عن «الصلاة الوسطى» وما المقصود بها ، يقول : «وذهب أكثر أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم ، إلى أنها صلاة العصر ، وهو قول علي كرم الله وجهه في أصح الروايات» [٤] .

والكتاب يتطلب أسلوباً خاصاً في العرض واللغة ، بما يتناسب ومحتواه ، وكسب القاضي بهاءالدين الوقت ، وتقديم خلاصة الأمر ، وتوضيح أهم الأمور في إعطاء الدرس ، مما حال من تنوّع المادة المعروضة وبعدها عن الشمولية والتنوع . والإنسان مسؤول عن صحبة ساعة ، فإما أن يفيد وإلا أين الرسالة ؟؟

٣ - كتاب «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» :

وهو من كتبه التي اطّلع عليها ابن خلكان ، وهو الكتاب الذي ذكر في أوله قصة اتصاله بالسلطان صلاح الدين ، يقول ابن خلكان : «وله كتاب في الأقضية سماه «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» ذكر في أوائله أنه حج سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار البيت المقدس والخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ،

---

(١) مخطوط ، دروس في الحديث ، ق ٢ .

(٢) نفسه ، ق ١٥ .

(٣) نفسه ، ق ٢٠ .

(٤) نفسه ، ق ١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد الحج والزيارة ، دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب ...» [١] .

كذلك ذكره صاحب «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» وقال : «له كتاب سماه «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» ، ذكر في أوائله أنه حج ... الخ» [٢] .

وأما من حيث ثبوت النسبة لصاحبها فلا مجال للشك فيها ، فقد ورد في بداية مخطوط «دلائل الأحكام» وعلى الغلاف منه «ولهذا المصنف كتاب سماه «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» وأما عن منهجه فيقع الكتاب في مجلدين ، وأما عن محتواه فيتعلق بالأقضية كما قال ابن خلكان [٣] ، وكما تعني دلالته .

وللكتاب قيمة عظيمة ، بدليل ما جاء في «مخطوط دلائل الأحكام» عند ذكر كتاب «ملجأ الحكام عند التباس الأحكام» حيث كُتب في الورقة الأولى : «وهو كتاب جليل المقدار» ، وعلى الرغم من كون الكتاب يتعلق تعلقاً مباشراً بالأمور القضائية ، فإن الكاتب بهاءالدين بطنه بشيء عن حياته ، حيث كان من أهم المصادرالتي اتكأ عليها ابن خلكان في تقديم ترجمته .. وهذا واضح في أكثر من مكان في أثناء ترجمة ابن خلكان لبهاءالدين ، حيث يقول : (إنه حضر عند السلطان دفعة ثانية في رسالة من الموصل وهو على طرق حران ، وكان صلاح الدين مريضاً يومئذ ، وذكر أيضاً : أنه لما توفي صلاح الدين كان حاضراً ، وتوجه إلى حلب لجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض ، هكذا ذكره في كتابه «ملجأ الحكام») [٤] .

وعليه ، فالكتاب المتعلق بالأقضية ، قد شمل ترجمة كاملة لكاتبه حتى آخر أيام حياته مما يزيد من قيمة الكتاب ويثريه .

وقد ذكرت المصادر القديمة والمراجع الحديثة ، كتاب «ملجأ الحكام» وعدّته من

---

(١) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٧ .

(٢) أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٩٩ .

(٤) نفسه ، ص ٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضمن مؤلفاته [١] .

والكتاب ما زال مخطوطاً - وقد حاولت الباحثة الحصول عليه أكثر من ثلاث مرات دون جدوى - بدار الكتب المصرية يحمل رقم ٤٦م فقه [٢] ، وذكر محمد راغب الطباخ أن مخطوطاً آخر منه موجود في المكتبة السلطانية [٣] .

٤ - كتاب «الموجز الباهر» :

هو كتاب في الفقه [٤] وسماه حاجي خليفة «الموجز الباهر في الفروع» [٥] .

كذلك الأسنوي قال هو كتاب في الفقه [٦] ، وقد ورد ذكره في كثير من المصادر القديمة [٧] ، والمراجع الحديثة [٨] . ولكن مع الأسف ، ليس لدينا أية

---

(١) - كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٨١٥ .
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
- الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .
- الطبقات ، لابن قاضي شهبة ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
- طبقات الشافعية «الأسنوي» ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- طبقات الشافعية «السبكي» ، مج ٥ ، ص ١٥١ .
- إعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٥ .
- مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
- الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ .
- العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٢ .
- أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، ص ١٦١ ، دائرة المعارف ، مج ٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، ص ١٣ .

(٣) إعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٠٠ .

(٥) كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٨٩٨ .

(٦) الأسنوي ، طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٧) بالإضافة إلى المصادر السابقة ، انظر :
- شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٥٥ .
- الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .
- طبقات الشافعية ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .
- مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
- إعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ .
- طبقات السبكي ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

(٨) أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معلومات أخرى تختص بتوضيح ظروف تأليف الكتاب ، ومادته من حيث المحتوى والتقسيم ، ولغته وطريقته في العرض .. وإلى غير ذلك من أمور هامة نستعين بها عند عرض الكتاب .

ولا يُعلم عن مخطوطاته شيء ، فلم يذكره أحد ممن اعتنى بذلك ، حتى «بروكلمان» لم يعتبره من مؤلفات بهاءالدين ، حتى يساعدنا على معرفة وجود المخطوط .

وطالما أنه ليس بين أيدينا ، فلا نستطيع أن نقول سوى أن له قيمة نستخلصها من قيمة كاتبه العلامة ، وأنه كتاب ديني فقهي .

٥ - كتاب «فضائل الجهاد» :

يقول الله تعالى في كتابه العزيز «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله مع المحسنين» [١] .

هكذا بدأ القاضي بهاءالدين حديثه عن الجهاد في كتابه «النوادر السلطانية»، وقال : «لقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه -صلاح الدين- وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، لقد كان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه ، يذكر شيئاً من أخبار الجهاد ، وقد أُلِّف له كتب عدة في الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً» [٢] .

ويقول ابن خلكان : «إن الكتاب جاء على مقدار ثلاثين كراسة ، ويشتمل على ما أعدّ الله سبحانه وتعالى للمجاهدين» [٣] .

والكتاب ما زال مخطوطاً ، وقد ذكر «بروكلمان» بأنه موجود بمكتبة

---

(١) سورة العنكبوت ، آية ٦٩ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

(٣) وفيات الأعيان ، ج ٧ ،ص ٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كوبريلي ويحمل رقم ٧٦٤ ، باسم «فضائل الجهاد» [١] وبعد البحث في فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي الكائنة في استانبول ، وجدنا شيئاً مخالفاً تماماً لما توقعناه . يقول كتاب الفهرس «كتاب فضائل الجهاد» لمؤلف عاش في القرن العاشر أو الحادي عشر ، ونسخة بخط النسخ في القرن الحادي عشر . ونُسب الكتاب ليوسف بن رافع بن شداد خطأً» [٢] .

ولكن ماذا بعد قول كاتبه بهاءالدين : «وأنا ممن جمع له فيه كتاباً» [٣] ، ومن الغريب أن الفهرس يقول في أول المخطوط المصور : «أردت أن أجمع بعض الآيات الواردة في فضائل الجهاد والأحاديث» وهذا يتناسب ومحتوى الكتاب الذي قال فيه كاتبه بهاءالدين موضحاً مادته «جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فضله ، وشرحت غريبها» [٤] .

ويؤكد قول الفهرس نسبة الكتاب لبهاءالدين بن شداد ، وليس لمؤلف عاش في القرن العاشر أو بعده . كما ثبت الكتاب في المصادر القديمة والمراجع الحديثة أيضاً [٥] .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، ص ١٤ .

(٢) فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، إعداد رمضان ششن ، مج ١ ، مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة ، استانبول ، ٨٦م ، ص ٣٧١ تحت رقم (٧٦٤) .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

(٤) نفسه ، ص ٢١ .

(٥) - كشف الظنون ، ص ١٢٧٥ .
- وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ٨٧ .
- سير أعلام النبلاء ، ج ٢٢ ، ص ٣٩٠ .
- طبقات الشافعية الكبرى ، مج ٥ ، ص ١٥١ .
- أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٦ .
- الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ (ولكن سماه فضل الجهاد ولم يوثق مصدره) .
- مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٢ .
- سياسة صلاح الدين ، ص ٢٩ .
- الحياة الأدبية ، ص ٥٣٧ .
- الحياة العقلية ، ص ١٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو حاولنا التعليق على محتوى الكتاب وطريقة الكاتب في العرض أو التأليف ، فإننا نقول إن هذا الكتاب اتسم بالمعرفة والشمول ، وهذه سمته الخاصة في التأليف المتنوع الثقافة ، وهذا لا يفوت على قارئ متمرس لكتب بهاءالدين .

ونلاحظ في كتاب «فضائل الجهاد» من خلال قول مؤلفه ، أنه اعتمد على القرآن الكريم والحديث الشريف كأهم مصدرين في تأليفه ، فهما أساس ثقافته ، وقام بالشرح والتحليل اللغوي لأي مفردة غريبة جاءت في الحديث أو في السياق ، وهو دائماً يبدأ بالأكثر أهمية ، ولو نظرنا إلى تعريف الكاتب للكتاب [1] ، لوجدنا أنه عرض لكل آية وردت فيه أولاً ، ثم لكل حديث روى فضله ثانياً ، ثم شرع بعد ذلك في شرح الغريب منها .

وكون الكتاب ما زال مخطوطاً ، ولا يُعرف عن وجوده شيء * ، فليس له ذاك الأثر الواقع على مؤلفات ألفت بعده بالطبع . ولكن هذا لا ينفي قيمة الكتاب الذي يحمل سنام الإسلام . قال تعالى : «تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» [2] . ويكفي لبيان أهمية الكتاب قول صاحبه : «وكان -رحمه الله- (صلاح الدين) ، كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصره» [3] .

٦ - كتاب «العصا» :

لم يذكره أحد من القدماء على الإطلاق ممّن اطّلعنا على كتبهم ، وقلة هي المراجع الحديثة التي ذكرته من ضمن مؤلفات القاضي بهاءالدين ، فقد جاء ذكره

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

* جاء في هامش أعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٦ ، أن الكتاب قد طُبع في ليدن سنة ١٧٥٥ باعتناء العلامة سولتنز ووثق معلومته المؤلف بقوله : «قال فانديك في كتابه «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» في صحيفة ٩٠ كتاب أحكام الجهاد النبوي لبهاءالدين بن شداد وتم البحث المكثف فلم نحصل على كتاب فانديك ولا على كتاب بهاءالدين .

(٢) سورة الصف ، آية ١١ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عند السيد العريني [١] وكذلك جاء ذكره في مقدمة «النوادر السلطانية» حيث عدّه المحقق «جمال الشيال» من مؤلفات القاضي بهاءالدين [٢] .

قال بروكلمان «والكتاب ما زال مخطوطاً ، بمكتبة باتان ٢/٥١٦=٢٧٧٢» [٣] ولم نتمكن من الحصول عليه حتى نقدم شيئاً عنه . ولكن «بروكلمان» قال : «إن المقصود به قصة موسى وفرعون» [٤] ، وقد تكون هذه المخطوطة التي لم نتمكن من العثور عليها ، هي الفعل القصة ، ولعل بروكلمان اطلع عليها حتى قال بأن المقصود فيها «قصة موسى وفرعون» ، كما أن دلالة العصا تشير لذلك الاحتمال .

وإن كان هذا صحيحاً ، لا نستطيع إدراجها تحت الكتب الدينية فقط ، وإنما تحت الدينية القصصية .

ثالثاً : كتب التراجم

- **أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي :**

لم يُذكر هذ الكتاب في أي مصدر من المصادر التي درست حياة بهاءالدين بن شداد ، قديماً وحديثاً * .

وكذلك (بروكلمان) لم يشر إليه ، لكن «الشيال» ذكره من مصنفات القاضي بهاءالدين في مقدمة كتاب «النوادر» ، وقال : «إن الكتاب ما زال مخطوطاً بمكتبة ولي الدين جارالله ، ونسخ في القرن التاسع الهجري ، وكُتب بقلم معتاد وبخط قديم ، ويقع في ٥٢ ورقة» [٥] .

---

(١) السيد العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٢ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، مقدمة المحقق ، ص ٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ، ج ٦ ، ص ١٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٤ .

* إلا عند الزركلي ، الأعلام ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ ، ولم يوضح مصدره .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتاب «المهذب في الفروع» لأبي إسحاق إبراهيم الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) [١] كتاب في الفقه ، تناول قضايا عدة ، منها الطهارة ، والصوم ، والزكاة ، والصلاة والحج والزواج ، والميراث ، والحدود ، والبيع .... وما إلى غير ذلك من أمور ، وفي أثناء هذا العرض كان يورد أسماء أشخاص ، أمثال ، الترمذي ، والبخاري ، والذهبي ، والزمخشري ، والشافعي ، وأبي مسعود الأنصاري ، وأبي هريرة ... وغيرهم كثير [٢] .

وقد جاء في فهرس المخطوطات العربية مقدمة كتاب «أسماء الرجال الذين في المهذب للشيرازي» ما يلي : «أوله بعد الديباجة وذكر المؤلف القطب الأول من الكتاب نذكر ... الأسماء المودعة في كتاب المهذب على ترتيب أبوابه» [٣] .

وعليه ، فإن الكتاب تناول الأسماء الموجودة في كتاب «المهذب في الفروع» وترجم لها ، وكان هذا التناول منهجياً حسب موضوعات المهذب .

وهذا نوع جديد من مؤلفات بهاءالدين المتنوعة ، التي يتناسب كل التناسب مع مذهبه ، كون مؤلفه شافعياً ، وصاحب «المهذب» شيرازي شافعي .

ومما يؤسف له أنه ليس أمامنا شيء نقدمه للقارئ أو الدارس كمثال أو نموذج يؤيد رأينا ويقوي حجتنا ، وقد عملنا جهدنا لإحضار المخطوط ولم نتمكن .

وأخيراً ، وبعد استعراضنا لمؤلفات بهاءالدين المتنوعة والإفادة منها مادة ودليلاً ، نصل إلى نتيجة حازمة ، وهي أن علماء المسلمين من مؤرخين وفقهاء ورجال حديث وتشريع وعلماء بمختلف التخصصات ، ندر أن نجد منهم عالماً بفرع واحد من فروع العلم ، وهذا دليل على أن بهاءالدين فقيه ، ومؤرخ ، وأديب ، وكاتب ، وعالم ، وسياسي ، وقاضٍ .

---

(١) كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٩١٢ .

(٢) شرح المهذب للشيرازي ، للإمام أبي زكريا محي الدين النووي ، ت ٦٣١هـ ، تحقيق محمد المطيعي ، مكتبة الإرشاد ، جدة ، المقدمة .

(٣) فؤاد سيد ، فهرس المخطوطات المصورة ، منشورات معهد المخطوطات العربية ، مطبعة السُنّة المحمدية ، القاهرة ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الخصائص الفنية

١ – التأثر بالقرآن الكريم

٢ – والحديث الشريف

٣ – والشعر

٤ – الزخارف البديعية

٥ – الصور البيانية

٦ – اللغة والأساليب

أ) أسلوب الدعاء

ب) أسلوب الخطاب

ج) أسلوب القصص

د) الصدق الفني والموضوعي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الخصائص الفنية

التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

لقد اتكأ بهاءالدين في كتابته على عدة مصادر ، كان أولها ما أخذه من التعبير القرآني والحديث الشريف ، إلى جانب ما كانت تسعفه به ثقافته الدينية في جوانبها الأخرى متمثلة في التاريخ الإسلامي والفقه وغير ذلك . ففي مجال القرآن نرى الكاتب يسارع لاستغلال الطاقات والإمكانات التعبيرية التي توجد في الأسلوب القرآني البليغ في كل مناسبة تعن له ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

والكاتب في هذا المضمار أخذ من القرآن الكريم تعبيراتٍ وجملاً قرآنية كاملة إما بنصها أو بتعديل طفيف تستوجبه عملية الأداء الفني ، يؤدي هذا التعبير القرآني إلى شيء من الإيحاء .

فالكاتب يقتبس قول الله تعالى عند حديثه عن صفة الحلم والعفو عند السلطان صلاح الدين في كتابه «النوادر السلطانية» و«العافين عن الناس ، والله يحب المحسنين» [١] ، وفي حديثه عن اهتمام السلطان بأمر الجهاد ، يستشهد بقول الله تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا ، وإن الله لمع المحسنين» [٢] .

وفي فتح إحدى القلاع القوية الواقعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين ، يقتبس قول الله تعالى : «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» [٣] .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٢٨ .
القرآن الكريم ، سورة آل عمران ، آية (١٣٤) .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢١ .
القرآن الكريم ، سوة العنكبوت ، آية (٦٩) .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٩٣ .
القرآن الكريم ، سورة غافر ، آية (٨٥) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي هذا الاختيار نرى الألفاظ مناسبة تماماً للموضوع ، ومناسبة أيضاً للموقع الذي جاءت من أجله ، هذا إلى جانب أنها أخذت موقعها الصحيح والملائم لها تماماً في السياق ، وهي بذلك قد أدت وظيفتها الإيحائية أداءً جيداً .

ولعل من أجمل الاقتباس عند ذكر طرف من صبر السلطان صلاح الدين واحتسابه ، قول الله تعالى «ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم» [١] وجهاد صلاح الدين للأعداء يحتاج إلى صبر . وهذا ما استوعبه الكاتب ، فالاختيار القرآني الماثل في ذهنه ، يواكبه إحساسه ، ينهل منه حيث شاء بمنتهى السهولة والطواعية .

ويضمّن الكاتب بهاءالدين كلامه أحياناً كلمة قرآنية تولّد إحساساً خاصاً ، مثال ذلك عندما تحدث الكاتب عن فتح عكا حيث قال : «فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة» [٢] ومنها يستدرج الكاتب المتلقي الفطن إلى قول الله تعالى : «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» [٣] .

كذلك عند ذكر الكاتب لحادثة أخذ الأعداء لقافلة مصرية ، استخدم كلمة قرآنية واحدة ، تؤدي إلى الاستنتاج المباشر ، يقول الكاتب : «وأما الانكتار الملعون فقد ركب مع العرب بجمع يسير ، وسار في صورة عربي ، ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس * فعاد واستركب عسكره ، وكانت الكبسة قريبة الصباح وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال [٤] .

ونجد الكاتب هنا قد استغل النص القرآني وما فيه من معان لخدمة الفكرة التي يريدها ، وله من المقدرة الواعية على أن يوظّفها في كتابته بما يريد ، وهذه أمور أجدها تدل على الذكاء عند الكاتب ، حيث فطن إلى ما في الكلمات من

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٤ .
سورة غافر ، آية (٨٥) .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٠٩ .

(٣) سورة التوبة ، آية (١١١) .

* من سورة الأنفال ، آية (١١) .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إمكانات دلالية يستخدمها استخداماً واعياً ، فليس هناك كلمة تتناسب مع الحدث وتؤدي إلى هذه النتيجة غيرها (قد غشيهم النعاس) .

وفي هذا تأكيد على ما قاله ابن الأثير في كتابه الجامع الكبير : «وحسن التأليف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتجعل في أماكنها» [١] .

ومما لا شك فيه أيضاً أننا نجد الكاتب يلجأ إلى معرفته القرآنية للتعبير عن موقف بعينه ، مثال ذلك في ذكر فتح الطريق إلى عكا ، حيث يقول : «عزم العدو على الخروج بجموعهم ، فخرج راجلهم وفارسهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضاً ، حتى قاربوا خيام اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم ركب الناس بأجمعهم ، ووافق فارسُهم راجلَهم ، وشابُّهم شيخَهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصاً على عقبيه» [٢] ، هذا تصوير مثير ، يؤدي إلى نوع من الانفعال الناتج عن التساؤل الداخلي في النفس ، يولده وصف الكاتب لحجم جيش العدو وطريقته في الإقدام إلى المعركة «فلما قرب كل من الفريقين المتقابلين من الآخر ، وصار بحيث يراه ، ويعرف حاله ، وقبل أن يلقاه في المعركة ويصطلي نار القتال معه» [٣] جاء البيان الإلهي بتضمين الكاتب نصه بقوله : نكص : «أي رجع القهقري وتولى إلى الوراء» [٤] ، ولعل هذا التعبير القرآني قد جسّد الصورة .

ونجده في مكان آخر يقتبس آية كريمة ، وذلك عندما خرج السلطان مع عمه «أسدالدين شيركوه» إلي مصر ، وهو يقول : «وكنت أكرهَ الناس للخروج في هذه الدفعة وما خرجت مع عمي باختياري» [٥] ، وبعد وفاة أسدالدين يتولى حكمها ، وفي هذه الأثناء يقتبس الكاتب الفطن قول الله تعالى : «وعسى أن تكرهوا شيئاً

---

(١) ضياءالدين بن الأثير ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور ، تحقيق د. مصطفى جواد ، د. جميل سعيد ، بغداد ، ١٣٧٥ ، ١٩٥٦م ، ص ٦٥ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٠٦ .

(٣،٤) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط ٢٢ ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ج ٣ ، ص ١٥٣١ .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٣٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو خير لكم» [١] .

هذه وغيرها من الأمثلة توجد في معظم صفحات الكتاب ، ونجدها دائماً ذات وقع خاص لا تخطئه الأذن ، كأن يقول في نصر المسلمين وهزيمة المشركين أو الأعداء ، «وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين *» [٢] .

أو أن يقول عن حال الأعداء : «وأدخل الله في قلوبهم من الخوف والرعب ** ما يمكنهم الصبر معه» [٣] ، أو أن يصف ضيق حالهم : «واشتد عتوّهم واستفحل أمرهم ، وضاقت الحيل عنهم ، ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ***» [٤] ، أو أن يقول عن أمر .. ما .. لم يتحقق في وقته وساعته «ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ****» [٥] .

ويقول بهاءالدين معبراً عن فرح المسلمين لحريق مركب صليبي : «وارتفع لهيبها في البحر ارتفاعاً عظيماً ، واشتبكت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وكفى الله شرها ، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً *****» ، حزن الألمان لذلك حزناً عظيماً» [٦] ، ومن كلمات الاقتباس نجد دلالة دينية خاصة ، «وهي الغيظ» وليس في قلوب الأعداء في تلك الأثناء إلا الغيظ . حيث لم يتحقق ما تمنوا والاقتباس في مجموعه ، يدل على عمق في الثقافة القرآنية ، وإلا كيف نفسر

---

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة ، آية (٢١٦) .

* من سورة النحل ، آية (٢٧) .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ .

** من سورة الأحزاب ، آية (١٢) ، سورة الحشر ، آية (٢) .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٤٩ .

*** من سورة آل عمران ، آية (٤٥) .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ١٧٠ .

**** من سورة الأنفال ، آية (٤٢) .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٥٢ .

***** من سورة الأحزاب ، آية (٢٥) .

(٦) النوادر السلطانية ، ص ١٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استخدامه لبعض الآيات القرآنية أو المصطلحات القرآنية ، بهذا التحديد في مجال الاستخدام ، القائم على الإدراك والدراية والوعي التام بدور الكلمات التي جاءت من أجلها في الجملة .

وأما عن كتبه الأخرى ، فعلى الرغم من كونها في أغلبها تختص بذكر الأحاديث النبوية إجمالاً ، إلا أنه اقتبس أيضاً من القرآن ، فعندما يتحدث الكاتب في كتابه «دلائل الأحكام» عن التيمم وأحكامه [١] ، نجده يدلل مقتبساً قول الله تعالى : «فتيمموا صعيداً طيباً» [٢] ، وفي حديثه عن شرائط الصلاة في الفصل الأول وهو عن ستر العورة ، يقتبس قول الله تعالى : «خذوا زينتكم عند كل مسجد» [٣] .

وكذلك في كتابه الآخر «دروس في الحديث» يستشهد وهو يتحدث عن الصلاة وأهميتها في حياة المسلم [٤] بقول الله تعالى : «وحافظوا على الصلوات» [٥] .

ونجد الكاتب في اقتباسه المصيب جعل الحكم تأكيداً ، دون جدال . ولولا أن ثقافته الدينية بهذا القدر من الرسوخ في نفسه ومن العمق في المعرفة لما كان ليستطيع تحقيق ذلك ، وبهاءالدين كان في كل نتاجه متأثراً بالقرآن الكريم وهذا ما جُبلت عليه فطرته من تدين .

وكان المثقفون ينالون الثقافة الدينية منذ حداثتهم ، ولا يفوتنا طبيعة الأحداث الكبرى التي عاشتها الأمة ، والتي تحتاج إلى هذا النوع من الثقافة .

وأما الحديث النبوي فقد كان يمثل أيضاً ركناً هاماً من تلك الخلفية الثقافية الدينية ، حتى إن الكاتب قد ألف كُتباً خاصاً في هذا المجال ، منها كتاب «دلائل الأحكام» ، وكتاب «دروس في الحديث» .

---

(١) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ٢٣ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة النساء ، آية (٤٣) .

(٣) القرآن الكريم ، سورة الأعراف ، آية (٣١) .

(٤) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ١٤ .

(٥) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، آية (٢٣٨) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي كتبه الأدبية التاريخية الأخرى ككتاب «النوادر السلطانية» نجده أيضاً متأثراً بالحديث الشريف واقتباسه منه ، اقتباس المدقق لمعناه والواعي لحسن اختياره ، فعند حديثه عن مواظبة السلطان صلاح الدين على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية ، نجده يقتبس قول الرسول الكريم : «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله ، وأقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام» [١] ، وفي ذكر طرف من كرم السلطان صلاح الدين يستشهد بقول الرسول الكريم : «إذا عشر الكريم فإن الله آخذ بيده» [٢] ، وعند الحديث أيضاً عن شجاعة السلطان يقتبس قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية» [٣] .

وفي حديث الكاتب عن محافظة السلطان على أسباب المروءة يقتبس قول الرسول الكريم : «بعثت لأتم مكارم الأخلاق» [٤] .. ويبقى الكاتب متأثراً بالحديث النبوي في معظم صفحات الكتاب ، حتى يصل إلى ذكر فتح القدس المبارك ، فيقول : «ولما تسلم عسقلان - يعني صلاح الدين - والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساق الجد والاجتهاد عن قصده ، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل ، فسار نحوها معتمداً على الله ، مفوضاً أمره إليه ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُثّ على انتهازه إذا فُتح ، بقوله عليه السلام : «من فُتح له بابٌ خير فلينتهزه فإنه لا يدري متى يغلق دونه» [٥] ، مع العلم أن بين فتح عسقلان وبين أخذ الافرنج لها من المسلمين خمسة وثلاثين سنة ، فقد ملكها العدو سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وفتحها كان فتح باب الخير حيث تم فتح القدس في سنه ثلاث وثمانين وخمسمائة . وفي ذكر فتح صفد ، يقول بهاءالدين : «لقد كنت عنده

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٧ .

(٣) نفسه ، ص ١٩ .

(٤) نفسه ، ص ٣١ .

(٥) نفسه ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في خدمته ليلة وقد عيّن مواضع خمسة مناجيق حتى تنصب فقال -السلطان- في تلك الليلة : «ما ننام حتى تنصب الخمسة» ، وظلوا حتى الصبح وهم في خدمته وقد انتهى العمل ، ولم يبق إلا تركيب الجنازير ، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح ، وبشّرته بمقتضاه ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : «عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله» [1] .

تلك بعض الشواهد على الاقتباس من أقوال رسولنا الكريم ، ولعل جميعها جاءت في موقعها وتليق به ، حيث كان الكاتب لمّاحاً متوقد الذكاء في اختياره ، لا سيما الشاهد الأخير ، حيث أرى فيه الكاتب الذي وظّف اقتباسه في تجسيد الموقف وبطريقة ملائمة تتناسب مع السياق ، وتعطى فكرة معينة للمتلقى ، وهي الثبات والتحدي وحب النصر والشهادة في سبيل الله .

كما قدم الكاتب حديثاً كان الغرض منه الدعاء والتقرب إلى الله .. فعندما تحدث إلى السلطان صلاح الدين في حالة أزمة عاشها ، قال : «اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ، ويصلي على العادة بالأقصى ، موضع مسرى النبي عليه السلام ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفية على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك : «إلهى ، قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبقَ إلا الإخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك ، والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل» فإن الله تعالى أكرم من أن يخيب قصدك» [2] .

وبهذا الحس الديني قدم لنا الكاتب شيئاً من أسس الاستقرار الروحي .

التاثربالشعر

لم نلحظ هذا التأثر في إنتاج بهاءالدين ، لا سيما وأن مجموعه يقع تحت

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩٥ .

الترمذي والنسائي ، التاج ، منصور علي ناصف ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٦ ، باب الجهاد ، ج٤ ، ص ٣٣٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التأثير الديني ، وعليه ، لم نجد لبهاءالدين ذلك الأثر إلا في كتابه «النوادر السلطانية» حيث استشهد ببيتين من الشعر فقط ، الأول ، كان عند ذكر الكاتب لقصة طفل رضيع فقدته أمه في المعركة ، وباتت مستغيثة ، حتى وصل أمرها إلى ملوكهم ، فقالوا لها : «إنه رحيم القلب ، أي السلطان ، وقد أذنّا لك في الخروج إليه ، فاخرجي واطلبيه منه ، إنه يرده عليك» [1] . فخرَجَت تستغيث إلى اليزك الإسلامي ، فأطلقوها إلى السلطان ، فأتته وبكت بكاءً شديداً ، ومرغت وجهها في التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرقّ لها ، ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق ، فأمر بشرائه ، وأُخذ ، ولم يزل واقفاً -رحمة الله عليه- حتى أُحضر الطفل ، وسُلّم إليها ، فأخذته ، وبكت ، وضمته إلى صدرها ، فأرضعته ساعة ، ثم أمر بحملها على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها .

ويعلق الكاتب بهاءالدين بقوله : «فانظر إلى الرحمة الشاملة لجنس البشر ، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة

ومليحة شهدت لها ضرّاتها والحسن ليس لحقه من ناكر * [2]

والكاتب واقعي في اختياره ، لأن حال المرأة وضرّتها لا يستقر ، كما لا يمكن أن تكبرها أو تذكر حسنها وفضلها ، وهذا هو الحال بين الأعداء والمسلمين ، ولكن الحسن لا يمكن نكرانه ، لذلك قال الأعداء من ملوكهم عنه : «إنه رحيم القلب» وهذه شهادة عن يقين .

والبيت الثاني ، كان أشدّ بلاغة ، وأعظم تصويراً ، حيث ذكره الكاتب بهاءالدين عند وفاة السلطان صلاح الدين -رحمه الله- حيث قال : «وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج ، حتى إن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٥٨ .

* لم أستدل على القائل .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ١٥٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصيح صوتاً واحداً ، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، فما يوجد قلب إلاحزين ، ولا عين إلا باكية [١] ، «لقد ماتت محاسن الأخلاق بموته» [٢] ول متمثلاً :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام * [٣]

والكاتب بهذا الاقتباس أوجد التوازن بين الانفعال والتعبير الذي نجم عن نضج الحاسة أو الثقافة الشعرية عند الكاتب ، مما دفعه لاختيار الألفاظ المقترنة بالفكر والانفعال والمتمثلة في البيت .

وحتى تكون المودة بين الشكل والمضمون ، جعل الكاتب هذا البيت هو النهاية، في نهاية كتاب وضعه وبطّنه بأجلّ الصفات ، وعظيم الأعمال والبطولات ، وتحمّل الصعاب والعقبات ، وتحقيق الانتصارات ، وتأييد الجهاد بالشهادات ، وفيه كانت الخاتمة ، والتي أعطتنا دلالات معينة لها تأثير مضاعف ، تستدرجنا لقول الله تعالى : «لكل أجل كتاب» [٤] .

كما كان في الكتاب بيتان من الشعر ، وقد جاء الكاتب بهما في سياق كلام السلطان صلاح الدين [٥] ، وهذا فقط هو ما وجدناه من تأثره بالموروث الشعري .

الزخارف البديعية

«لقد ظهر البديع فناً في التعبير وطريقاً من طرق القول الجميل الذي يمتع الأذن ، ويعذب وقعه في النفوس ، بما يستدعي من معانٍ ، وما يُحدث من تقسيم

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٨٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٨٨ .

* هذا البيت لأبي تمام .

وانظر : ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي ، تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، مصر ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٧ .

(٤) سورة الرعد ، آية (٣٨) .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ١٤٦ ، ١٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإيقاع» [١]، وازدهر هذا الفن وتطور كثيراً حتى كان الرائد في نتاج تلك الفترة *. وأصبح هدفاً يرتجى ، فهذا العماد يعبر عن هذه الحقيقة بقوله في مقدمة الفتح القدسي : «هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السِيَر المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون المستخبر أن يسمع ، والأديب أن يقول» [٢] ، فقد أصبح البديع وخاصة السجع لافتاً للنظر كظاهرة أسلوبية ، فهذا أبو شامة يعبر عن صنيع العماد بقوله : «إن العماد في كتابته طويل النفس في السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه» [٣] .

واستقر أمر البديع حتى أصبح استخدام الأسلوب المسجوع منه أساساً في التصانيف عامة ، والتاريخية الأدبية منها خاصة ، بيد أن بعض الكتاب من أمثال «بهاءالدين» لم يلتزموا السجع إلا بالقدر الذي يكون «المعنى هو الذي طلبه واستدعاه .. وألحقه بالحسن وأولاه ، ما وقع من غير قصد من متكلم إلى احتلابه ، وتأهب لطلبه» [٤] .

وهذا واضح في كتابه «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» أكثر من كتبه الأخرى ، كونها تبتعد عن هذا النوع من البيان ، إذ اقتصر على السجع في المقدمة ، كما هو الحال عند معظم الكتاب والأدباء ، فهو يقول في مقدمة كتابه «دلائل الأحكام» : «الحمد لله على الهداية إلى الإسلام والإرشاد إلى حكم ما شُرع

---

(١) د. محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ص ٢٠٢ .

* مثل مؤلفات العماد .

انظر الفتح القدسي ، ص ٧٨ ، ٧٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وستلاحظها بأنها قطع فسيفسائية .

(٢) الفتح القدسي ، ص ٣ .

(٣) الروضتين ، ص ٥ .

(٤) الجرجاني ، أسرار البلاغة في علم البيان ، تعليق محمد رشيد رضا ، عن نسخة الشيخ محمد عبده ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ص ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الأحكام ، والتمسك بشريعة محمد المبعوث إلى ساير الأنام »[١] .

بينما نجد في كتابه «النوادر السلطانية» اتباع الأسلوب المسجوع ، وهذا هو أسلوب زمانه ، انظر إلى وصفه لحال العدو في وقعة حطين : «وقد أيقنوا بالويل والثبور ، وأحست أنفسم أنهم في غدٍ زوار القبور »[٢] .

وفي وصف المعركة يقول : «ولم يزل الحرب يلتحم ، والفارس مع قِرنه يصطدم ، حتى لم يبق إلا الظفر ، ووقوع الوبال على من كفر ، وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسّره ، وأجراه على وفق ما قدره ، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين[٣] وكان حقاً علينا نصر المؤمنين[٤] .

وفي مكان آخر من مواقع الصراع يصور لنا انتصار الإسلام بألفاظ مسجوعة جميلة ، فيقول : «وكذب الشيطان ، ونصر الإيمان ، وظل الناس في قتل وطرح ، وضرب وجرح »[٥] ، ويقول أيضاً : «فصبَر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا في الحرب باقتحام »[٦] .

وفي هزيمة الأعداء يقول : «حتى بان لهم الخسران ، وظهر على الكفر الإيمان »[٧] ، «وعلموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم مقتولون »[٨] .

وعند حديث الكاتب عن حريق المنجنيقات التي للعدو المخذول يقول : «وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب ، ولم يشعر العدو إلا والسيف فيهم حاكم عادل، وسهم قضاء الله وقدره فيهم نافذ خاذل ، وهجم الإسلام على الكفر في

---

(١) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ١ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٧٦ .

(٣) نفسه ، ص ٧٧ .

(٤) سورة الروم ، آية (٤٧) .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ١١٢ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٣ .

(٧) نفسه ، ص ٤٣ .

(٨) نفسه ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أراد الكاتب بهاءالدين من السجع أن يزين كلامه بما تقتضيه ضرورة الحال أو الكتابة ، يقول القرطاجني : «إن السجع ، لما كان زينة الكلام ، فقد يدعو إلى التكلف ، فرأيي ألا يستعمل في جملة الكلام ، وألا يُخلى الكلام بالجملة منه أيضاً ، ولا يحسن في الكلام جميعاً أن يكون على نمط واحد ، لما فيه من التكلف ولما في الطبع من الملل عليه ، لأن الإتيان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد» (١) .

وقد كان الكاتب أيضاً يحافظ في سجعه على عنصر الاعتدال قدر المستطاع بين الجمل «لئلا يبعد على السامع مع وجود القافية ، فيقل الالتذاذ بسماعها» (٢) .

وعليه ، فإن بهاءالدين قد تعامل مع السجع وجاء بعبارات مسجوعة ، ولكن بشكل يوصل المعنى بسهولة ، ويؤدي الغرض بسلاسة ، ويضفي جمالاً على الأسلوب بإيقاعاته الموسيقية التي تقررها القافية وصداها يؤكد المعنى المراد ، دون الإيغال به ، رغم وجود الكاتب في الفترة الزمانية والمكانية التي انتشر فيها هذا النوع من البديع ، وشمل التأليف فيه الكثير من كتاب عصره حيث كانوا يلتزمون الصنعة ويوغلون بها ، إلا أن الكاتب كان حريصاً ، فقد أقبل عليه بحذر ، ولم يثقل كتابه به .

وأما عن الطباق والذي يُعد من فن البديع الخفيف الظل ، ويعني «الجمع بين متضادين ، أي معنيين متقابلين بأن يكون بينهما تقابل وتنافٍ ، ولو في بعض الصور ، سواءً أكان التقابل حقيقياً ، كتقابل القدم والحدوث ، أو اعتبارياً كتقابل الإحياء والإماتة» (٣) .

والكاتب تعامل مع الطباق كثيراً في كتابه «النوادر السلطانية» ولكن ليس عن قصد وكدّ ، وإنما كانت طبيعة الموضوع تفرض نفسها باستخدام هذا النوع من

---

(١) حازم القرطاجني ، منهاج البلقاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمد الحبيب ابو الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦م ، ص ٣٨٨ .

(٢) الحلبي ، شهاب الدين محمود ، حسن التوسل في صناعة الترسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٢١٣ .

(٣) بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ط ٢ ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفن البديعي ، وذلك لأن الكاتب تناول حياة صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين ، فكان من الضروري أن يتكرر ما مثاله : «وظهرت أمارات نصرة الحق على الباطل» [١] أو أن يقول عن الجيش الإسلامي : «ورجح حياته الأبدية على حياته الدنيوية» [٢] ، وأن يكثر من قول «المسلمين وقول الكافرين» [٣] أو أن يقول : «لا بد من فصل الحال اليوم إما بالصلح أو الخصومة» [٤] ، أو بألفاظ أخرى عديدة نجدها في مجمل صفحات الكتاب كأن يستعمل كلمة «انتصر ، انهزم» ، «يُسلّم ، يُطلق» ، «فرح ، حزن» ، «البر ، البحر» ، «الفرنج ، العرب» .. وغيرها كثير .

ويقول أيضاً في أسدالدين عندما رتب وزيراً على مصر: «ودام أمراً ناهياً [٥]، وفي ذكر شيء عن كرم السلطان صلاح الدين يقول : «وكان رحمه الله ، يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة» [٦] .

وفي وصفه للسلطان في آخر أيامه وهو في إحدى معاركه ، يقول : «وكان رحمه الله ، ضعيف القوة ، قوي القلب» [٧] .

وبهاءالدين في هذا المجال كان مؤرخاً ضمناً وأديباً شكلاً ، فطبيعة المحور ، أدت لهذا الاستعمال الدلالي وبشكل خاص من خلال المفردات المختارة .

وأما عن الفنون البديعية الأخرى ، والتي كانت قليلة لولا بعض الأمثلة التي جاءت في كتاب «النوادر السلطانية» وتدور حول الجناس ، ومثال ذلك عند حديث الكاتب عن صبر المسلمين في المعركة : «فلما رأى العدو ذلك الصبر المعجز ، والإقدام المزعج» [٨] ، وعند وصفه أيضاً لإحدى المعارك يقول : «وظل الناس في قتل

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٨١ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ٤٠ .

(٦) نفسه ، ص ١٧ .

(٧) نفسه ، ص ١٤٨ .

(٨) نفسه ، ص ١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وطرح ، وضرب وجرح » [١] .

وأما عن المقابلة ، فقد جاءت بعض الأمثلة منها : «والتقى الأصطولان * في البحر والعسكران في البر » [٢] ، وعند حديث الكاتب عن حال العدو في المعركة يقول : «السالم منهم جريح والعاطب طريح» [٣] .

ولكون هذه المقاييس الأدبية هي المتعارف عليها في العصر كان لا بد من أن يتأثر الكاتب ، ولكن بتفاوت كبير ، فهو لم يستخدم السجع إلا بصورة تطلبها طبيعة الموقف الصادق ، ولم يلجأ إلى الطباق إلا ببراعة المؤرخ الأديب ، ولم يطرق باب الجناس والمقابلة إلا في مجال يسير تطلبه السياق . ولعل ذلك الابتعاد عن فن البديع يعود لسيطرة الثقافة الدينية على الكاتب ، أو لطبيعة الموضوع من حيث المضمون التاريخي والشكل الأدبي ، مع أن العماد كتب حول هذا الإطار ، وأبدع في استغلال فن البديع ، أو قد يكون الكاتب كره هذا النوع من الفن ولم يكن يجد نفسه فيه ، علماً بأنه كان أديباً حقاً في فن البيان كما سنرى .

وعليه ، فالكاتب يختلف عن معاصريه ، ويتميز بشخصية تاريخية أدبية منفردة .

الصورالبيانية

كثرت الصور البيانية عند الكاتب ، لا سيما في كتابه «النوادر» ولو بحثنا في مصادر الصورة ووسائلها ، وأغراضها ، لوجدناها متنوعة .

من أمثلة تلك الصور ، ما جاء في وصف الكاتب لإحدى المعارك الكبيرة ، حيث يقول : «وركبت الجيوش وطلبت الأطلاب ، وكان -رحمه الله- أول راكب ، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم

(١) النوادر السلطانية ، ص ١١٢ .

* الأسطول : يرسم في المراجع العربية أصطول .. وجمعها أساطيل ، كلمة يونانية الأصل وتعني السفن الحربية مجتمعة أو على السفينة الواحدة .

(٢) نفسه ، ص ١٢٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ركوبهم ، وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها »[١] .

هذه صورة نفسية مستلهمة من واقع الحياة الإنساني ، من بيئة المرأة التي ترى الحياة بعين وليدها ، جاء بها الكاتب ليصور حال السلطان وقت المعركة ، وقد بدأ النفير والقتال وجاءت ساعة الجد والاجتهاد وبدأ الصراخ في تهليل وتكبير ، والسلطان صلاح الدين يدور بين الجيوش ، يتفقد أحوالهم واستعدادهم ، في وسط الجنود والجموع والخيول وجو الحرب ، وكان السلطان في موقف الوالدة التي فقدت ولدها ، وثكلت واحدها ، كيف يتصور الإنسان حالها ؟؟

فهو يتفقد هذا ويبحث عن ذاك ، ويتذكر آخر ، ويتألم ألم القائد الذي يسعى بحرص وإيمان للنصر . والكاتب في هذا الموقف عبّر تعبيراً مميزاً ، وبصياغة خاصة ، تجاوز فيها الكاتب مرتبة الإفهام إلى مرتبة التأثير فهو يحدد لنا صورة البطل في المعركة ، إذ نقل بهاءالدين الأديب الحس والصوت والحركة بفنه البياني، مما جعلنا ضمناً نعيش تلك اللحظة .

وفي صورة فنية أخرى ، اقتبسها الكاتب من البيئة ، من الطبيعة القاسية التي يعيشها الجنود نجده يصور الجيش الإسلامي وقت لقائه مع العدو بقوله : «وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرائسها»[٢] ، وهي صورة طبيعية حقيقية مسخرة لخدمة الغرض الفني في تحقيق معنى الهجوم . وعلى الهاجم أن يقتنص الفرصة تماماً كحال الأسد الجائع . هل تفوته هجمة قوية على فريسة يمكنه إيقاعها ؟ وهذا حال الجيش في الهجوم على الأعداء ، وفي الهجوم فرصة الشهادة .

والكاتب موفق في هذا ، حيث جعل الصورة حية ، يكاد القارئ يراها عياناً ، ويتابع الكاتب وصفه وهو ما زال تحت تأثير الأسود معجباً بشكلها وحجمها وشجاعتها ، وليس أنسب منها في جو المعركة ، يقول الكاتب «وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها»[٣] وهذه صورة فيها مشاركة تقريبية لا سيما

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٢٩ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٩ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحال الخارجين .

والكاتب أيضاً متعلق بالفعل «هجم» ، لعظيم دلالته في جو كهذا ، فهو يقول أحياناً : «وهجم الشتاء» [١] أو يقول أيضاً «هجم الإسلام على الكفر في منازله»[٢] .

ومن الصور الفنية الأخرى ، صورة مستلهمة من وسط الحياة الجاهلية القديمة ، يقول الكاتب : «وسكت السلطان في صورة مفكر ، والناس سكوت ، كأن على رؤوسهم الطير» [٣] وهذه صورة حركية نفسية ، تدلل على رغبة في معرفة القرار المحدد للمصير .

وفي صفحات أخرى من الكتاب ، نرى الكاتب قد اقتبس صورة من تأثره بالقرآن الكريم ، وذلك عندما يصف لنا جيش العدو في معركة حطين ، يقول : «هذا وهم سائرون كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * [٤] .

هذه صورة لموقف ، وقد مُثل بحركة بطيئة ، مثله جيش العدو وهو مستكره لا حيلة له ولا قوة ، جيش خائف من المواجهة ، وهو يعرف المصير ، والقارئ أو المتلقي الفطن يتوقع النتيجة من حال الجيش السلبي في المعركة ، ويؤمن بحقيقة كونية طبيعية وهي التردد والذبذبة النفسية عند الهجوم بين كل البشر .

ومن الملاحظ أن الكاتب قد اقتبس كثيراً من سورة الأنفال خاصة في وصف الأعداء ، حيث قدمهم بصورة الاستهزاء البياني ، ضعفاء جبناء ، ولعل كثرة الاقتباس تعود لتشابه الحال .

ومن الصور الجميلة ، صورة السلطان صلاح الدين وهو يتحمس لفتح القدس، وهي مستمدة من النفس ذات الطموح ، يقول الكاتب : «ولما تسلّم عسقلان، والأماكن المحيطة بالقدس ، شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده» [٥] .

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٥١ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٦ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٦ .

* القرآن الكريم، سورة الأنفال ، آية (٦) .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ٧٦ .

(٥) نفسه ، ص ٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا نجد الأديب قد قام بتصوير الأمل في فتح القدس من خلال حركة البطل القائد ، وهي صورة يلتقطها القارئ الناقد ، فلا يرى أجمل من كلمة «شمّر» والتي تعني النية الحقيقية في العمل مع صعوبة العمل وضرورة الإسراع فيه وذلك من خلال دلالتها المباشرة على الحركة ، ولا أدق من كلمة «الساق» التي تعني الأساس والركيزة ، ولا أعمق من كلمتيْ الجد والاجتهاد في القصد حيث هما دليلا المثابرة والصبر .

ومن الصور الفنية الأخرى المستلهمة من صميم الطبيعة العربية (الجغرافية) قول الكاتب : «وتلقّاهم أهل عكا تلقّي الأمطار عن جدب» [١] وذلك عندما وصلت إحدى السفن الحربية وهي تحمل المير والأقوات لأهل عكا ، فكان حالهم كحال الأرض التي تشتهي المطر ، وكانت السفن وما تحمله تشبه الأمطار إلى أن وصلت .

وفي مكان آخر من الكتاب نجد أسلوباً من البيان ، وقد تجلّى في قول الكاتب وهو يصف المعركة وأصواتها من تهليل وتكبير ودعاء بالنصر ، وقد أوشكت إحدى السفن الحربية الكبرى أن تغرق في البحر من شدة الرياح والعواصف ، يقول الكاتب : «والله يدفع عنها والريح تشتد ، والأصوات قد ارتفعت ، والدعاء يخرق الحجب» [٢] ، فهذه الكناية عن دعوة صدق وحاجة ، أعطتنا ملمحاً نفسياً يشعرنا وكأننا حضور ، كما كان يقول في أكثر من موقع : «وصاحوا صيحة الرجل الواحد» [٣] ، فدلت الكناية على معنى الوحدة والتعاون ووحدانية الهدف .

وجملة نقول ، إن الكاتب في صوره الفنية كان أديباً مبتعداً عن التاريخ ، فكانت صوره مستلهمة من الواقع الإنساني والاجتماعي حيناً ، ومن الواقع الطبيعي والثقافي الديني أحياناً أخرى وهذا أعطاه فرصة الإبداع ، فكانت مقياساً لصدق إحساسه في الأداء .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٨ .

(٣) نفسه ، ص ٧٧ ، ٩٢ ، ص ١٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللغة والأساليب

تُعد لغة الكاتب سهلة ، يسيرة ، يفهمها من يقرأها ، وفي كتبه الدينية نجده يعتمد الشرح الدقيق لمعاني المفردات تسهيلاً على القارئ ، مثال ذلك عند قوله : «وكان الرسول يتوضأ ويمسح على عمامته وموقه» «والموق هو نوع من الخف» [١] وفي مكان آخر من الكتاب يقول عند حديثه عن المَهْر ، «كم سُقت إليها أي ما أمهرتها ، وإنما سمي ذلك سَوْقاً لأن أكثر أموال العرب كانت المواشي ، فكانوا إذا أمهر الرجل المرأة ساق إليها من النعم ما استقر ، فعبر به عنه لغلبته على ألسنتهم» [٢] .

كذلك الحال في كتابه «دروس في الحديث» يأتي بلغة يسيرة ، فيوضح ما غمض منها ، وذلك عند حديثه عن الطهارة ، يقول («ولا يقبل الله صلاة بغيرطهور، ولا صدقة من غُلول» وغريبه قول «غُلول» بضم الغين وهو سرقة المال) [٣] ومن كثرة ما ورد في ذلك يمكن القول إن تلك الكتب تكاد تكون معاجم لغوية لشرح المعاني التفسيرية الخاصة بالحديث .

ونلاحظ أيضاً في كتبه الدينية عبارات فقهية ، يستعملها دائماً كأن يقول : «وقول الشافعي في القياس» [٤] ، أو «واتفق أهل العلم على أن الواجب مرة وما زاد فسُنة» [٥] .

ويقول : «حكى أكثر الفقهاء ، أو اتفق أكثر أهل العلم ، أو قال العلماء من الصحابة .. أو مذاهبهم أقوى الاتباع» .. وإلى غير ذلك .

---

(١) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ١٢ .
انظر محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٩ ، ص ٨٦٩ .

(٢) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ٢٥١ .

(٣) مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ٢ .
انظر لسان العرب ، مادة (غلل) .

(٤) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ٥ .

(٥) مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما كان الكاتب متأثراً بالمذهب الشافعي إلى حد كبير ، إذ يناقش الآراء ويقرّبها لرأي الشافعي ، وهو مذهبه ، يقول : «وهذا دليل على مذهب الشافعي» [١] ، أو يناقش آراء الفقهاء والعلماء ، ثم يورد قول الشافعي كرأي صواب فيقول : «وذهب الشافعي إلى .....» [٢] ، وعند إيراد الأحكام الفقهية لبعض الفقهاء حول مسألة ما ، يزيد من أحكام وأقوال الشافعي عن غيره كأن يقول : «وقال أصحاب الرأي ... ، وقال الشافعي أو وألحق الشافعي ، أو أن يقول : ثم قال الشافعي ... والله أعلم» [٣] .

والحقيقة أن لغة الكاتب تصل بالقارئ إلى آفاق شاملة ، وتدلل على عمق في المعرفة وسعة في الاطلاع ، فهو فقهي العبارة ، شافعي المذهب ، دينيّ اللغة ، شاملي المعرفة ، أستاذ في التشريع الإسلامي ، ومحدث في الأحاديث النبوية .

وأما في كتابه التاريخي الأدبي ، «النوادر السلطانية» فقد كانت لغته سهلة واضحة معبرة ، تدل على مدى تمكنه من أساليب اللغة العربية ، فكانت لغته قوية جزلة في مواقف القوة ، وذلك عند تصويره للصراع ، يقول : «ولما كانت بكرة الأحد ثالث شعبان ، تعبأ الناس للقتال ، وأحدقوا بالعدو ، وعزموا على مهاجمة القوم ، وأن يقاتلوا العدو في خيامه ، وفعلوا ما كانوا عزموا عليه ، واشتدت منعة العدو ، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس ، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس» [٤] .

وقد قال ابن الأثير : «الجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التهديد» [٥] ، والرقيق منها يستعمل في «وصف الأشواق وذكر أيام

---

(١) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ٢٦ .

(٢) نفسه ، ق ٣٣ .

(٣) نفسه ، ق ٣٢ .

(٤) النوادر السلطانية ، ص ١٠٧ .

(٥) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهناء» [١] ، يقول بهاءالدين : «وصلني كتابه قدس الله روحه ، إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاءاً شديداً ، ووحلاً عظيماً ، فخرجت من القدس ولم يتفق المثول في خدمة السلطان إلى ضاحي نهار يوم الوصول ، وكان الملك الأفضل حاضراً وفي خدمته وكان خلق من الأمراء وأرباب المناصب ، ينتظرون جلوس السلطان ، فلما شعر بحضوري ، استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه -رحمة الله عليه- فقام ولقيني ملقى ما رأيت أشد من بشره فيه -رحمه الله- وقد ضمني إليه ، ودمعت عينه» [٢] ، وفي مكان آخر من الكتاب ، نجده يكتب أو ينقل الخبر بلغة يسيرة يفهمها أقل الناس ثقافة ، يقول : «ولما كان يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة سبع وثمانين وخمسمائة اقتضى الحال تفقد أحوال القدس ، والنظر في عمائره ، وكان الملك العادل قد عاد من الجيش ، وعلم بُعدْ مقدمي الفرنج عنا ، فرأى أن يكون هو الذي يسير إلى القدس ، ويتفقد أحواله ، فسار في ذلك لهذا الغرض» [٣] .

كما كان يستخدم بعض العبارات الأجنبية مثل Term ، فيقول : «وانقضى التيرم الأول» (أي الفصل الأول) ، كما كان يستخدم بعض الكلمات المستخدمة في لغة الناس اليومية ، يقول : «وصعد طائفة من العدو إلى خيم السلطان ، فقتلوا (طست در) كان هناك ، (وطست در) لفظ عامي بمعنى أحد الغلمان المشرفين على الطشت الذي يغسل فيه القماش السلطاني [٤] . وفي جملة الكتاب نرى الكاتب قد استخدم بعض الألفاظ غير العربية ، كاللاتينية ، والتركية ، والفارسية ، واليونانية ، والإيطالية ، والإسبانية في أصلها ، إلا أنها كانت تستخدم في تلك الفترة ، ومعظمها مرتبط بأدوات القتال والحرب ، ومسميات الأعداء ، مثال ذلك

---

(١) المثل السائر ، ج ١ ، ص ٢٤٠ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٢ .

(٤) نفسه ، ص ١١١ . انظر تعليق المحقق .
انظر : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البطسة [١] ، الشين [٢] ، والطراد [٣] ، والبركوس [٤] والمنجنيق [٥] ، والخرج [٦] ،

---

(١) البطسة : مأخوذة من الاسبانية ، ومعناها السفينة الكبيرة التي تستخدم في الحرب وقد تستخدم في نقل التجارة .

انظر : - مفرج الكروب ، تحت حوادث ، ت ٥٨٧هـ .

- النوادر السلطانية ، تعليق المحقق ، هامش ، ص ٩ .

- محيط المحيط ، ص ٤٤ .

(٢) الشين : وهي السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية وهو خصيصاً للجهاد في البحر ، والعامة تستخدم الشُونة بضم الشين لخازن الغلة المعدة لذخائر العسكر وعلى المرصد الذي يبنى على سور المدينة للمحافظة من العدو .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣ (الهامش) .

- النوادر السلطانية ، ص ٤٨ (الهامش) .

- محيط المحيط ، ص ٤٩٠ .

(٣) الطراد : هي الطريدة أيضاً وهي سفينة صغيرة سريعة السير والجري ، وهي نوع من المراكب البحرية ، وكانت تستعمل في حمل الخيول والفرسان .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

- النوادر ، ص ٤٨ (الهامش) .

(٤) البركوس : وهو نوع من السفن وهو أصغر حجماً من البطسة ، يقول أبو شامة : «أخذوا لهم بركوساً وهو مركب صغير وركبوا فيه» ، وجاء في المحيط «أنه ضرب من السفن ، معرّب ، وهو ماخوذ من الإيطالية Barcoso ، والانجليزية Bark .

انظر : - النوادر السلطانية ، ص ١٤٣ .

- الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

- مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣٧ .

- محيط المحيط ، ص ٢٧ .

(٥) المنجنيق : لفظ أعجمي معرّب ، وهو آلة من آلات الحصار في العصور الوسطى ، يقوم مقام المدفع الحالي ، وجاء في المحيط أنها من أصل فارسي وقد أخرجت من مادة (ج ن ق) ، وهي آلة ترمى بها الحجارة .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ .

- النوادر السلطانية ، ص ٢٦ (الهامش) .

- محيط المحيط ، ص ١٣٠ .

(٦) الخرج : هو لفظ فارسي ، وهو نوع من القوس الرامي الذي ترمى عنه النشاب .

انظر : النوادر السلطانية ، ص ٤٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنمـــجـاه [١]، والطارقـة [٢] ، والسنـورا [٣] ، والجـــاليـش [٤] ، والكوسـات [٥] ، والشحنـة [٦].

وأمـا عن مـسـمـيـات الملوك للجـيش وأعـضـائه فكان يسـتـخـدم الانكتـار ،

---

(١) النمجاة : لفظ معرّب فارسي (نمجا) وهو الخنجر المقوس ويشبه السيف القصير .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

- النوادر السلطانية ، ص ٧٩ .

(٢) الطارقة : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه من القتال ، أو آلة حربية مكونة من جملة من الألواح الخشبية تستخدم كمتراس يخفي الجنود والرماح والصخور خلفها .

انظر : - النوادر السلطانية ، ص ١٢٨ .

- المعجم الوسيط ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ .

- محيط المحيط ، ص ٥٤٩ .

(٣) سنورا : السنور جملة السلاح .

انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٤١ .

(٤) الجاليش : ومعناه الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ثم أطلق على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعة منه .

انظر : النوادر السلطانية ، ص ٦٢ .

(٥) الكوسات : موسيقى الجيش وهو مصطلح من العصور الوسطى ، يقول ابن واصل في رحيل الملك الأمجد صاحب حلب والملك المظفر صاحب الموصل في سنة ٦٣٧هـ : «فضربت كوساتهم ، ورحلوا» .

انظر : - مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ٢٣٣ .

- النوادر السلطانية ، ص ٢٠ .

(٦) الشحنة : جاء في اللسان : وشحن البلد بالخيل ملأه ، وبالبلد شحنه من الخيل أي رابطة ، وشاع بالغلط أن الشحنة تعني الأمير ، فالشحنة ، رياسة الشرطة أو محافظ المدينة أو الأمير المشرف على حراستها .

انظر : - النوادر ، ص ٧٣ ، تعليق المحقق .

- اللسان ، ج ١٣ ، ص ٢٣٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والكندهنري [١] ، والاستبار [٢] ، والقومص [٣] ، والشاووش [٤] ، والطلب ، واليزك [٥] .

كما يصف بعض آلات الحرب ومنها آلة عظيمة من آلات القتال الحديثة ، يقول : «فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحته من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك بها ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور» [٦] .

ولولا كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لما حفظت تلك المسميات ، وهو من الكتب التي تحمل التراث الحربي بكل أدواته ، ويدلل على محاولة التطور الحربي آنذاك ، والتكتيك العسكري والسياسي من خلال حسن استخدام الآلات ونصبها .

---

(١) الكندهنري : أي الكونت هنري .
انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٣١ .

(٢) الاستبار : هم طائفة من الفرسان الدينيين (وحولهم حديث طويل) .
انظر : النوادر السلطانية ، ص ٧٧ .

(٣) القومص : هو تعريب حرفي للفظة لاتينية (comes) أي الأمير ، ومعناها باللاتينية الرفيق ، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، وفي محيط المحيط جاء حرفياً بكلمة (قومس) تعني الأمير .
انظر : - مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٣ .
- النوادر السلطانية ، ص ٧٧ .
- محيط المحيط ، ص ٧٥٦ .

(٤) الشاووش : لفظ تركي ، وكان معناه في مصطلح العصر الأيوبي جندي مهمته النداء أو استنفار الجيش .
انظر : - مفرج الكروب ، ص ٢٩٥ .
- النوادر السلطانية ، ص ٦٢ .

(٥) اليزك : هو لفظ فارسي ومعناه طلائع الجيش .
انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٠ .

(٦) النوادر السلطانية ، ص ١٤٠ ، ١٤١ - وفيها وصف أيضا لكبش والخرطوم .
وانظر : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من تناثر تلك المصطلحات في صفحات الكتاب ، فإننا نؤكد أن الكاتب اعتمد في كتابه أسلوباً سهلاً ، بعبارة محددة ، فلم يلجأ إلى التعقيد مطلقاً . ولا يحس القارئ بصعوبة أو ملل في تناوله للمادة المكتوبة عن حوادث مختلفة وأوضاع متمايزة .

ولم يكن الكاتب غائباً في أسلوبه الجديد وعاطفته الصادقة ، وصورته الأدبية المتنوعة ، بل كانت له طوابع شخصية ارتبط ظهورها بمواقف معينة أو بأنواع الثقافات والخبرات التي فقهها ومارسها .

«ولا يخفى أن ثقافة الإنسان وخبراته تغدو مع الزمن جزءاً لا يتجزأ من شخصيته ، وتترك آثارها في تصوراته وتفكيره ، وما يصدر عنه من قول أو عمل» [١] ، وذلك واضح في قول الكاتب بهاءالدين : «وأقام السلطان قدس الله روحه ، يقطع الناس ويعطيهم دستوراً ، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية ، وانقطع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر المصالح التي فاتته» .

وفي ذكر طلب السلطان والده ، يقول : «ثم أنفذ في طلب والده ليكمل السرور به ويتم الحبور ، ويجمع القصة مشاكلة ما جرى للنبي يوسف ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء جميعاً» [٢] ، وهذا تعليق ديني ثقافي .

وفي موضع آخر يعلق بهاءالدين الإنسان بقوله : «ثم سار في أوائل رمضان -من محروسة دمشق يريد صفد ، لم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن ، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان فيجتمع فيه بأهله . اللهم إنه احتمل ذلك ابتغاء مرضاتك ، فآته أجراً عظيماً» [٣] .

وفي بعض الأحيان ، يعتمد الكاتب السرد ويذكر لنا شيئاً عن عادات الشعوب كذكره لعادة الفرنج عندما مات ملك الألمان حيث سلقوه بالخل قبل

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ص ٢١٥ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٤٤ .

(٣) نفسه ، ص ٩٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دفنه [١] ، وعن عادة بعض الوزراء المصريين إذا ضعُف وزيرهم وعجز صاحب [٢] المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقعّوا للقاهر منهم ، ورتّبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب بالسلطان .

ويقول في مكان آخر : «وكان على جميل عادة العرب ، وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب مِنْ ماء مَنْ أسرَه أمِن» [٣] .

كما نجده ذا ثقافة عالية لا سيما عند ذكر شيء عن الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الكتاب ولو بشكل يسير [٤] ، حتى إنه كان يقوم أحياناً بدور المقيّم .. فها هنا يقول عند وصول ملك الانكتار لإحدى المعارك : «إنه ذو رأي في الحرب مجرب» [٥] ، وعن تاريخ «أرناط» يقول : كان من كبار الافرنجية وعقلائها ، وكان يعرف العربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث ، وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه» [٦] .

وفي كتابه : «دروس في الحديث» ، نجده أيضاً يُقدم عن الأشخاص -وإن لم يدخل في نهج الكتاب- فهو يقول عن «شريح» : «وهو ابن هانئ بن يزيد بن كعب ، الكوفي ، سمع عن عائشة» [٧] ، وفي كتابه «دلائل الأحكام» نجده يقول : «واسم الراوي شُريح بشين مضمومة وهو من الصحابة ، يكنى أبا المقدام» [٨] .

وكذلك صنع في لبابة بنت الحارث ، في نفس الكتاب ، حيث يقول : «هي بنت الحارث ، هلالية من بني هلال ، وهي زوجة العباس ، فكان النبي يزورها

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٢٤ .

(٢) نفسه ، ص ٣٦ .

(٣) نفسه ، ص ٧٨ .

(٤) نفسه ، ص ٤٦ ، ص ٤٧ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٦١ .

(٦) نفسه ، ص ٩٧ .

(٧) مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ٥ .

(٨) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنها أول من أسلم بعد خديجة» [١] .

كما تبرز شخصية الكاتب في هذه الكتب عندما يكون ذا علم بالجغرافيا والفلك ، وذلك واضح في كتابه «الدلائل» فهو يقول عن تحديد القبلة : «ومما يستدل به أهل لمشرق على القبلة القطب الشمالي وهو نجم صغير» [٢] ، ويحدد الأمكنة أيضاً ، عندما يتحدث عن وادي بطحان فيقول : «وهو وادٍ بالمدينة» [٣] ، ويبدو عالماً لغوياً في شرحه للمفردات ، وذلك عندما يقول : «كان الرسول يتوضأ ويمسح على عمامته وموقه» فيتابع والموق نوع من الخُف * [٤] .

كما نجد أثر تدينه حيث يربط حدوث الحدث بأيام الجمعة ، وذلك بقوله : «وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع ، لا سيما أوقات صلاة الجمعة ، تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب إلى الإجابة» [٥] ، أو يقول : «فاتفقت فتوحات الساحل في أيام الجمع ، وهي علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات [٦]، ويركز على هذه النقطة كثيراً وما تأتيه فرصة إلا ويذكرها ، فهو يقول أيضاً : «وكانت الحملة بعد صلاة الجمعة اغتناماً لدعاء خطباء المسلمين على منابرهم» [٧] .

وأما عن إخلاصه للسلطان ، فهذا واضح في الكتاب ،حيث نجده دائماً يثني عليه ويدعو له ، ويذكر محامده وأخلاقه ، وذلك في معرض حديثه عن الجهاد ، حيث يتدخل لما كان يعرف عن أخلاق السلطان وذلك بقوله مثلاً : «وكان -رحمه الله- شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار ، وهو صابر على مفارقتهم ، راضٍ ببعدهم

---

(١) مخطوط «دلائل الأحكام» ، ق ٢٩ .

(٢) نفسه ، ق ٥٦ .

(٣) مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ١٩ .

* انظر : الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ج ٣ ، ص ٢٩٤ .

(٤) دلائل الأحكام ، ق ١٢ .

(٥) النوادر السلطانية ، ص ٧٠٥ .

(٦) نفسه ، ص ٩٢ .

(٧) نفسه ، ص ١٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عنه ، وكان صابراً على مُرّ العيش وخشونته ، مع القدرة التامة على غير ذلك ، احتساباً لله تعالى ، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء مرضاتك ، فارض عنه وارحمه » [١] .

إنّ أسلوب الكاتب تميز بسرعة التجاوب بين التجربة والتسجيل المباشر ، حيث كان مصدر تلك العفوية ا لصدق ، مما أخرج أسلوباً رقيقاً يسيراً في أغلبه ، مبتعداً عن الألفاظ المتوعرة ، والصورة البعيدة ، والصنعة المستكرهة ، مع الحفاظ على الصياغة النثرية الجميلة ، والحرص على أحكام التأليف بين الكلمات ، فكانت الألفاظ في معظمها يسيرة .

الأساليب

«إن الأسلوب هو مجال التفرد والتميز ، لأنه مزيج من الجمال الفني الذي يستطيع نقل الواقع وتصويره» [٢] ، وعليه ، فقد انفرد الكاتب وتميز بتنوع الأساليب المؤدية لأسلوب الأديب ذاته ، فقد توفر في كتاب «النوادر السلطانية» على الأغلب هذه الأساليب :

أسلوب الدعاء ، أسلوب الخطاب ، أسلوب القصص ، والصدق الفني والموضوعي .

- أسلوب الدعاء :

وهذا واضح في معظم مؤلفات الكاتب ، فهو يقول في كتابه «دروس في الحديث» عندما جاء ذكر مكة : «ومكة حرسها الله تعالى» [٣] ، وفي كتابه «النوادر» كان يدعو للسلطان صلاح الدين دائماً ، ويترحم عليه كثيراً ، ويقول : «رحمة الله عليه» ، أو «رحمه الله» أو «قدّس الله روحه» هذا غير دعائه المستمر له بالمغفرة والثواب والإحسان والرضا ، في كل حادثة تذكر . كما كان يترحم أيضاً على أهل

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٧ .

(٢) د. محمد عبدالمطلب ، البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٨٤م ، ص ٢٦٧ .

(٣) مخطوط «دروس في الحديث» ، ق ١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفضل ، مثال ذلك في قتل أسرى المسلمين يقول : «في ذكر قتل المسلمين الذين بعكا رحمة الله عليهم» [١] ، يقول دوماً في ذكر «الملك الظاهر والملك العزيز رحمهما الله» [٢] ، وكلما ذكر الأعداء وقتلاهم لعنهم بقوله : خذلهم الله ، لعنهم الله ، الملك الملعون .. وهكذا [٣] .

وكذلك الأمر عندما يذكر مدينة لها قيمتها كحلب والقاهرة ودمشق فهو يقول : «محروسة» [٤] . وعندما يذكر مدينة محتلة يقول «يسر الله فتحها» كما هو الحال في الكثير من المدن ومنها عكا [٥] .

والحقيقة أن الكاتب ، كما هو ملاحظ في كتابه وكتبه الأخرى يحب الدعاء ، ويرتبط معه ارتباطاً وجدانياً نابعاً عن صدق في العقيدة وتوكل على الله ، وهذه الظاهرة الأسلوبية ، كان الكاتب فيها مكثراً جداً ، ولعل ذلك يعود لحب بهاءالدين الصديق للسلطان صلاح الدين . حتى إننا لم نجد في الكتاب على الإطلاق ورود ذكر اسم السلطان صلاح الدين دون أن تعقبه كلمة دعاء .

فقد كان صديقاً أميناً وفياً ، ملازماً له في كل تحركاته اليومية وحتى وفاته. وأما عن دعائه للمدن ، فنعزو ذلك لحبه للجهاد ومشاركته فيه ، مما يجعله يدعو دوماً بالحفظ والحراسة للمدن الإسلامية .

- أسلوب الخطاب :

وقد لجأ إليه الكاتب لأغراض بعينها ، مثال ذلك في حوار دار بينه وبين السلطان صلاح الدين ، حيث سأل السلطان صديقه ذات مرة ، فقال : «أنا أستفتيك ما أشرف الميتات ؟ فقال بهاءالدين : «فقلت الموت في سبيل الله» فقال السلطان:

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٧٤ .

(٢) نفسه ، ص

(٣) نفسه ، ص ٦٣ ، ١٣٣ ، ١٥٤ ، وهكذا في معظم صفحات الكتاب .

(٤) نفسه ، ص ٣٠ ، ٧٢ ، ٢١٣ .

(٥) نفسه ، ص ٤١ ، ٤٨ ، ١٠٣ ، ١٣٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

«غاية ما في الأمر أن أموت أشرف الميتات» ، وعندها يخاطب الكاتب القارئ .. «انظر إلى هذه الطوية ما أطهرها ، وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها» [١] .

وفي مكان آخر من الكتاب ، يصور لنا حال السلطان وقت الجد والاجتهاد والمرض ، فهو يصف السلطان عندما يشتد عليه المرض ، ويسهر الليالي حاملاً الفكر والسلاح ، حتى تصل به أيام يصبح على ما بات عليه من القتل والقتال ويقول بهاءالدين مخاطباً المتلقي : فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب ، وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل ، ثم يدعو له بقوله : «اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته له ، فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين» [٢] .

وفي مكان آخر يحوّل الكاتب الصيغة من الغائب إلى المخاطَب ويقول : «ولما كان تسلّمه القدس -قدّس الله روحه- في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ، فانظر .. إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى» [٣] . لقد كان لفت الانتباه بغرض تعظيم الفتح ، وللتأكيد علي رضاء الله عن السلطان حتى قدر له ذلك ، فكان الغرض ثقافياً دينياً .

وفي وصفه لعدد العدو وعدّتهم يقول الكاتب : «ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب وقد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف وبما ساروا ، ووجدوا في أعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عطب وانتزع لحمها ، ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع وضَعُف الخيل .. فانظر إلى صنع الله مع أعدائه» [٤] هم كُثر ، عدداً وعدة ، ولكن الله أكبر .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٦ .

(٣) نفسه ، ص ٨٢ .

(٤) نفسه ، ص ١٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• أسلوب القصص :

وهو أسلوب ملحوظ إلى حد كبير لا سيما في كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» والمسمى كثيراً بسيرة صلاح الدين ، أو السيرة اليوسفية ، لذا نلاحظ وبوضوح أن بداية الكتاب هي بداية قصصية على ما سيأتي عند حديثه عن حياة السلطان : «وكان والده أيوب بن شاذي ، رحمه الله تعالى ، والياً بقلعة تكريت وكان كريماً أريحياً حليماً حسن الأخلاق ، انتقل إلى الموصل ، وانتقل ولده معه ، وأقام بها إلى أن ترعرع ، وكان والده محترماً مقدماً عند أتابك زنكي ، فانتقل إلى الشام وأعطي بعلبك ، فأقام بها في خدمة والده ، يتربى تحت حجره ، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه أمارات السعادة ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة» [١] .

ويقص في مكان آخر عن سيرة السلطان بقوله : «وكان رحمة الله عليه- حسن العقيدة ، تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، وكان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مصلاة ، رحمه الله ، ثم انقضت الجمعة على خير» [٢] .

ومن الغريب حقاً أن نشعر أننا أحداث قصة يرويها كاتبها المؤرخ فيصف لنا معركة ليس فيها مجال للخيال أو المبالغة ونرى كيف يتحول أديباً ، يقول الكاتب : «وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو رحمه الله كالوالدة الثكلى ، يتحرك بفرسه من طلب إلى طلب . ويحث الناس على الجهاد ، يطوف بين الأطلاب وينادي بنفسه «يا للإسلام» وعيناه تذرفان بالدمع ، كلما نظر إلى عكا ، وما حلّ بها من البلاء ، وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف والقتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب ، ولما هجم الليل ، عاد رحمه الله إلى خيمته ، وقد

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، فنام لا عن غفو ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه » [١] .

وقد جاء ذلك الشعور ونحن نقرأ تلك السطور بأنها قصة أو تقارب الأسلوب القصصي في السياق من ملمح الواقع البعيد نوعاً ما عن الرؤى والخيالات . فكانت الأحداث تُسجّل أو تُروى من قبل مشاهد أمين ، فلم يدع جزئية من جزئياتها دون أن يدونها كما هي ، بلا ألوان ولا أصباغ ، ولا إضافة أو حذف .

كما ويتأكد الشعور أو الإحساس الخاص بالقارئ ، بأنه أمام سرد قصصي . يقول الأديب بهاءالدين : «فاستدعاني وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، فأشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم ، وانصرفت إلى داري ، فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه ، وقصدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء ، فصلينا » [٢] .

وأما عن وفاة السلطان صلاح الدين ، فقد سردها الأديب على شكل قصة مؤثرة حيث يقول : «ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً ، حتى غشيته حمى صفراوية وأصبح عليه أثر الحمى ، حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل ، وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، ثم أخذ المرض في تزايد ، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا ، فاشتد مرضه ، وقلت رطوبات بدنه ، حتى انتهى إلى غاية الضعف ، وتغيب ذهنه ، وحدثت به رعشة ، وامتنع من تناول المشروب ، وضعفت قوته، وبات ليلته على حال المنتقلين إلى الله تعالى.

والشيخ يقرأ عنده القرآن ، ويذكره بالله تعالى ، وكان ذهنه غائباً ، لا يكاد يفيق إلا في أحيان ، ، وذكر الشيخ أنه لما انتهى إلى قوله تعالى : «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة» سمعه وهو يقول «صحيح» ،وهذه يقظة في وقت

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٦٧ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حاجة ، وعناية من الله تعالى ، فلله الحمد على ذلك » [١] .

وكانت وفاته - رحمه الله عليه - بعد صلاة الصبح ، وأُخرج بعد صلاة الظهر، "ونُدبتُ إلى الوقوف على غسله ، فلم يكن لي قوة تحمل ذلك المنظر" .

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضجيج ، حتى إن العاقل يتخيل أن الدينا تصبح صوتاً واحداً ، وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة ، وكان يوماً لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون ، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعزُ عليهم بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص ، إلا ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفدي بالنفس " . [١]

لقد صاغ بهاء الدين خبر وفاة صلاح الدين بشكل مؤثر ، لاسيما عندما أُخرج ليدفن ، وبأسلوب الكاتب القصصي الواضح الملموس في طريقة الوصف والسرد ، أعطي الكتاب صفة السيرة اليوسفية ، لا سيما أن الحديث عن حياة صلاح الدين تاريخياً وانسانياً لم يكن مجرد تحليلات نفسية أو اجتماعية ، أو أخبار تاريخية ، بل كان كل ذلك مسبوكاً في قالب فني وفي شكل قصة صادقة ذات أثـر .

* الصدق الموضوعي والصدق الفني :

لا مجال للتشكيك في مدى الصدق والنزاهة في كتابة بهاء الدين ، وهذا ما لمسته من علاقتي مع الكاتب ، وقد قال (لين بول في تصوير لكتاب بهاء الدين عن صلاح الدين ..إن بهاء الدين تحرى في كتابته الإدراك السليم والأمانة ، ولا يجد في كتابه إلا قدراً صغيراً من التحيز الشخصي" [٢] .

فعلى الرغم من الحب الشديد الظاهر بين صلاح الدين وبهاء الدين من خلال الأحداث الواقعة لم نلمح أي مبالغة من أي نوع كانت .

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٧ (بتصرف) .

(١) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٦ .

(٢) Lane - pole, Stanley Lane- poole, "Saladin and the history of the kingdom of Jerusalem, Beirut, 1969, P.vi

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما عن الصدق الفني ، فلا بد من بعض الأمور الفنية والتي يحتاجها السياق ، ليس للمبالغة المقصودة ، وإنما القصد منها تمجيد الانتصار ، فهذا الكاتب يصف لنا بعض المعارك فيقول :«والتحم القتال ، فصرع منهم خلق عظيم ، والنشاب لا يترك أحداً فانه كان يطير عليهم كالجراد »[١] .

ويقول في وصف حريق آلة مهولة للأعداد : « وأحرق حريقاً شنيعاً ، وظهرت له لهيب نحو السماء ، وألقى الماء عيه حتى برد حديده بعد أيام »[٢] .

وفي حريق أبراج العدو يقول بهاء الدين : «فلم يكن إلا والبرج قد اشتعل من ساعته ووقته ، وصار كالحبل العظيم من النار ، طالعة ذؤابته نحو السماء »[٣] .

وأخيراً نقول إن كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " عمل تاريخي أدبي أصيل فقد كان من أوله الى آخره ملتزماً الحق ، جارياً معه ، مما أعطى الكتاب صفة النزاهة . رغم كل الظروف .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص ١٤٩

(٢) نفسه ، ص ١٤٢

(٣) نفسه ، ص ١٢٠

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمـــة

وبعد ، فهذا هو بهاءالدين بن شداد ، وذلك نتاجه ، وتلك هي شخصيته ، كان مفسراً ومحدثاً ، فقيهاً ومؤرخاً .. وبعد هذا البحث ، نستطيع أن نقول .. وأديباً ، كما وصلنا إلى بعض النتائج فكان منها :

١ - أن صوّر البحث حياة السلطان «صلاح الدين» من خلال التركيز المباشر -عرضاً وتحليلاً- لكتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» حيث لم يتصدَّ أحد من الباحثين قبل ذلك لدراسته .

٢ - قدم البحث بعضاً من المعلومات المهمة عن المخطوطات الخاصة في التشريع الإسلامي والفقه والتي لم تقع عليها يد الباحثين من قبل ، والتي تنفع الإنسان المسلم في كل المجالات الحياتية ، وقد عرضها البحث بشكل تفصيلي .

٣ - عرّف البحث بمؤلفات بهاءالدين بن شداد ، غير كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» .

٤ - قام البحث بشرح المفردات الخاصة بأدوات القتال والتسميات المختلفة في الحرب ، تسهيلاً على دارس تلك الفترة ، مما لم يتوفر في رسائل حديثة كتبت عن نفس الفترة .

٥ - قدم البحث اتجاهاً جديداً في مجال التأليف يجمع بين التاريخ والأدب ، بملامح فنية ، وخصائص أسلوبية خاصة .

٦ - عرف البحث بعدد وافر من كُتّاب تلك الفترة ، ورسم صورة واضحة إلى حد ما .. لحياة كل منهم ، مما لم تقُم حولهم دراسات مستقلة .

٧ - صحح البحث بتوطئته التاريخية حقيقة المستوى الثقافي المتقدم لذلك العصر بعد رؤية وتمحيص .

٨ - عرّف البحث «بهاءالدين» سياسياً من خلال دوره في توطيد أركان الملك لأبناء صلاح الدين بعد وفاته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩ - نفى البحث سيطرة البديع على كل كُتّاب تلك الفترة ، بدليل نتاج بهاءالدين ابن شداد .

١٠- ربط البحث التاريخ بالأدب من خلال «سيرة صلاح الدين» المصاغة بروح فنية متميزة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصـادر والمراجـــع

- القرآن الكريم :

• المصادر المخطوطة :

- بهاءالدين بن شداد ، «دروس في الحديث» ، بودليان-اكسفورد رقم ٣ . ١١٧ . ١ وصل حديثاً إلى مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، عمان .
- بهاءالدين بن شداد ، «دلائل الأحكام» ، فيلم رقم (٥٠) ، الرقم المتسلسل ٧٣٦ ، مركز الوثائق والمخطوطات ، الجامعة الأردنية ، عمان . (مصور من نسخة المكتبة الوطنية/باريس) .

• المصادر المطبوعة :

- ابن أبي أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن خليفة السعدي ، ت ٦٦٨هـ ، عيون الأنباء في طبقاء الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، ط ٢ ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- ابن الأثير ، ضياءالدين ، أبو الفتح نصرالله بن محمد الجزري ، ت ٦٣٧هـ ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،
  - تحقيق محي الدين عبدالحميد ، مكتبة البابي ، القاهرة ، ١٩٣٩ .
  - تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- ابن الأثير ، ضياءالدين ، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور ، تحقيق ، د. مصطفى جواد ، بغداد ، ١٣٧٥ .
- ابن الأثير ، عزالدين ، محمد بن محمد بن الجزري ، ت ٦٣٠هـ ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي ، ت ٨٧٤هـ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ، ت ٦١٤هـ ، رحلة ابن جبير، دار صادر ، بيروت .

- ابن الجزري ، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد العمري الدمشقي ، ت ٨٢٣هـ ، غاية النهاية في طبقات القراء ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف قزاد علي ، ت ٦٥٤هـ ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد، الهند ، ١٩٥١ .

- ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبو بكر ، ت ٦٨١هـ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

- ابن شداد ، بهاءالدين يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢هـ ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ط ١ ، الدار المصرية للنشر والتأليف ، جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤.

- ابن شداد ، عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ، ت ٦٨٤هـ ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٥٦ .

- ابن شداد ، عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم ، تاريخ الملك الظاهر ، النشرات الإسلامية ، جمعية المستشرقين الألمانية ، ١٩٨٣ .

- ابن عبدالبَرْ ، أبو عمر يوسف بن عبدالله ، ت ٤٦٣هـ ، الاستيعاب في معرفة الصحاب ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة النهضة ، مصر .

- ابن العديم ، كمال الدين عمر بن أبي جرادة ، «بغية الطلب في تاريخ حلب» ، تحقيق سهيل زكار ، دمشق ، ١٩٨٨ .

- ابن قاضي شُهبة ، محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد ، ت ٨٧٤هـ ، الكواكب الدرية في السير النورية ، تاريخ السلطان نورالدين محمود زنكي ، تحقيق د. محمود زايد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٨٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن قاضي شهبة ، أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشُهْبي الدمشقي تقي الدين ، ت (٨٥١هـ) ، طبقات الشافعية ، تصحيح وتعليق عبدالعليم خان ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الهند، ١٩٧٨-١٩٨٠ .

- ابن كثير ، أبو الفدا الحافظ الدمشقي ، ت ٧٧٤هـ ، البداية والنهاية ، ط ٤ ، مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- ابن ماكولا ، الأمير الحافظ ، ت ٤٧٥هـ ، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب ، اعتنى بتصحيحه والتعليق عليه الشيخ عبدالرحمن اليماني ، ط ٢ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الهند .

- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق د. جمال الشيال ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ ، تحقيق د. حسنين محمد ربيع ، ج ٤ ، ج ٥ ، القاهرة .

- ابن الوردي ، عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ، ت ٧٤٩هـ ، تتمة المختصر في أخبار البشر ، المطبع الوهابية ، القاهرة ، ١٢٨٥هـ .

- أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي ، ديوان أبي تمام ، تحقيق محمد عبده عزّام ، دار المعارف ، مصر .

- أبو شامة ، شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل ، بيروت .

- أبو شامة ، المقدسي ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع والمعروف بالذيل على الروضتين ، دار الجيل ، بيروت .

- أبو الفدا ، إسماعيل بن علي بن محمود ، ت ٧٣٢هـ ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر ، ١٣٢٥هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الأسنوي ، جمال الدين أبو محمد عبدالرحيم بن حسن ، ت ٧٧٢هـ ، طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبور ، دار العلوم في الرياض .
- البغدادي ، اسماعيل بن محمد الباباني البغدادي ، ت ١٩٢٠ ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، مكتبة المثنى ، بيروت .
- البنداري ، قوام الدين الفتح بن علي ، ت ٦٤٣هـ ، سنا البرق الشامي ، تحقيق فتحية النبراوي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- الجرجاني ، عبدالقاهر ، أسرار البلاغة في علم البيان ، على نسخة الشيخ محمد عبده ، تحقيق محمد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، مكتبة المثنى ، بيروت .
- الحلبي ، شهاب الدين أبو الثناء محمود ، حسن التوسل في صناعة الترسل ، تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- الحلبي ، محمد راغب بن محمود بن هاشم الطبّاخ ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط ١ ، المطبعة العلمية ، حلب ، ١٩٢٣ .
- الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ، ت ٣٨٨هـ ، غريب الحديث ، تحقيق الغرباوي ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث ، السعودية .
- الذهبي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان ، ت ٧٤٨هـ ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب أرنؤوط ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٣ .
- الذهبي ، شمس الدين ، ت ٧٤٨هـ ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والإعصار ، تحقيق بشار عواد ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- الزركلي ، خير الدين ، الأعلام ، ط ٩ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٠ .
- السبكي ، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن علي ، ت ٧٧١هـ ، طبقات الشافعية الكبرى ، ط ٢ ، دار المعرفة ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- السمعاني ، أبو سعد محمد بن منصور التميمي ، ت ٥٦٢هـ ، الأنساب ، تحقيق عبدالرحمن اليماني ، الناشر محمد أمين دمج ، بيروت .
- الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، ت ٧٦٤هـ ، الوافي بالوفيات ، باعتناء س. ديدوينغ ، يطلب من دار النشر فرانزشتانير بفيسبان ، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
- العماد الأصفهاني ، أبو عبدالله محمد بن صفي الدين ، ت ٥٩٧هـ ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، تحقيق شكري فيصل ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، ١٩٥٥ .
- العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذَهَب ، ت ١٠٨٩هـ ، ط ٢ ، دار الميسرة ، بيروت ، ١٩٧٩م .
- الفيروز أبادي ، مجدالدين محمد ، القاموس المحيط ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .
- القرطاجني ، أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ت ١٢٨٥ ، تحقيق محمد الحبيب بو الخوجة ، تونس ، ١٩٦٦ .
- القلقشندي ، ، أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .
- الكتبي ، ابن شاكر صلاح الدين محمد ، فوات الوفيات ، حققه وعلق حواشيه محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٥١ .
- مجيرالدين الحنبلي ، أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد ، ت ٩٢٨هـ ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عمان ، ١٩٧٣ .
- المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، صححه محمد مصطفى زيادة ، ط ٢ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٥٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المقرِّي ، أحمد بن محمد التلمساني ، ت ١٠٤١هـ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت .
- المنذري ، زكي الدين أبو محمد بن العظيم عبدالقوي ، ت ٦٥٦هـ ، التكملة لوفيات النقلة ، تحقيق وتعليق بشار عواد معروف ، مطبعة الآداب ، النجف ، ١٩٦٨ .
- منقذ ، أسامة بن مرشد بن مقلد بن نصر ، ت ٥٨٤هـ ، الاعتبار ، حرره فيليب حتى ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ .
- النعيمي ، عبدالقادر بن محمد ، ت ٩٢٧هـ ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر حسني ، مكتبة الثقاف الدينية ، ج ١ ، ١٩٨٨ ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٥١ ، ج ٢ .
- النووي ، أبو زكريا محي الدين ، ت ٦٣١هـ ، شرح صحيح مسلم ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٧٢ .
- النووي ، أبو زكريا ، ت ٦٣١هـ ، شرح المهذب للشيرازي ، تحقيق محمد المطيعي ، مكتبة الإرشاد ، جدة .
- اليافعي ، عفيف الدين أبو السعادات عبدالله بن أسعد ، ت ٧٦٨هـ ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، مؤسسة العلمي للمطبوعات ، ١٩٧٠ .
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله ، ت ٦٢٦هـ ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت .

• المراجـــع :

- إبراهيم أنيس ، المعجم الوسيط ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٢ ، بيروت ، لبنان .
- إحسان عباس ، فن السيرة ، ط ٢ ، بيروت .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط ٢ ، دار النهضة ، القاهرة .
- أحمد بدوي ، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة .
- إنعام الجندي ، الرائد في الأدب العربي ، دار الرائد العربي ، بيروت .
- بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ط ٢ ، دار العلوم للطباعة والنشر .
- بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، نقله إلى العربية يعقوب السيد بكر ، ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٧م .
- حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ط ٢٦ ، دار الثقافة ، بيروت .
- دريد عبدالقادر نوري ، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٦ .
- رمضان ششن ، فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي ، مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة ، استانبول ، ١٩٨٦ .
- السيد الباز العُريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٢ .
- سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ط ٢٢ ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة .
- شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- عبدالعزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
- عمر عبدالرحمن الساريسي ، نصوص من أدب الحروب الصليبية ، دار المنارة، جدة .
- عمر كحالة ، معجم المؤلفين وتراجم مصنفي الكتب العربية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، العراق .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- فرانز روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د. صالح أحمد العلي ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٣ .
- فؤاد البستاني ، دائرة المعارف ، بيروت ، ١٩٦٠ .
- فؤاد البستاني ، محيط المحيط ، مؤسسة جواد للطباعة ، لبنان ، ١٩٨٣ .
- فؤاد سيد ، فهرس المخطوطات المصورة ، منشورات معهد المخطوطات العربية، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة .
- كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، جمعية المطابع التعاونية ، عمان ، ١٩٨١ .
- كرد علي ، خطط الشام ، المطبعة الحديثة ، دمشق ، ١٩٢٥ .
- محمد درويش ، من كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٨٩ .
- محمد زغلول سلاّم ، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية .
- محمد عبدالمطلب ، البلاغة والأسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤.
- محمد عجاج الخطيب ، أصول الحديث ، علومه ومصطلحه ، ط ٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧١ .
- محمود إبراهيم ، حطين بين أخبار مؤرخيها وشعر معاصريها ، ط ١ ، دار البشير ، عمان ، ١٩٨٧ .
- محمود إبراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، دمشق ، ١٩٧٧ .
- نظير سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• الدوريـــات :

- جابر الشيال ، «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» ، مجلة الكتاب العربي ، ع ٢٤ ، ١٩٦٦ ، ص ٨٠-٨٦ .

- محمد حسين ، «صلاح الدين الأيوبي في رأي مؤرخ أوروبي» ، مجلة المجلة ، ع ٢٠ ، ١٩٥٨ ، ص ١٦-٢٢ .

- نوري حمودي علي ، «دراسة في السِيَر وأيام العرب» ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ع ٢٨ ، ١٩٨٠ ، ص ٤٨٠-٤٨٣ .

• المراجع الأجنبية :

- Lane-Poole, Stanley Lane-Poole,: Saladin and the History of the Kingdom of Jerusalem, Beirut, 1964.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البيمارستان النوري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

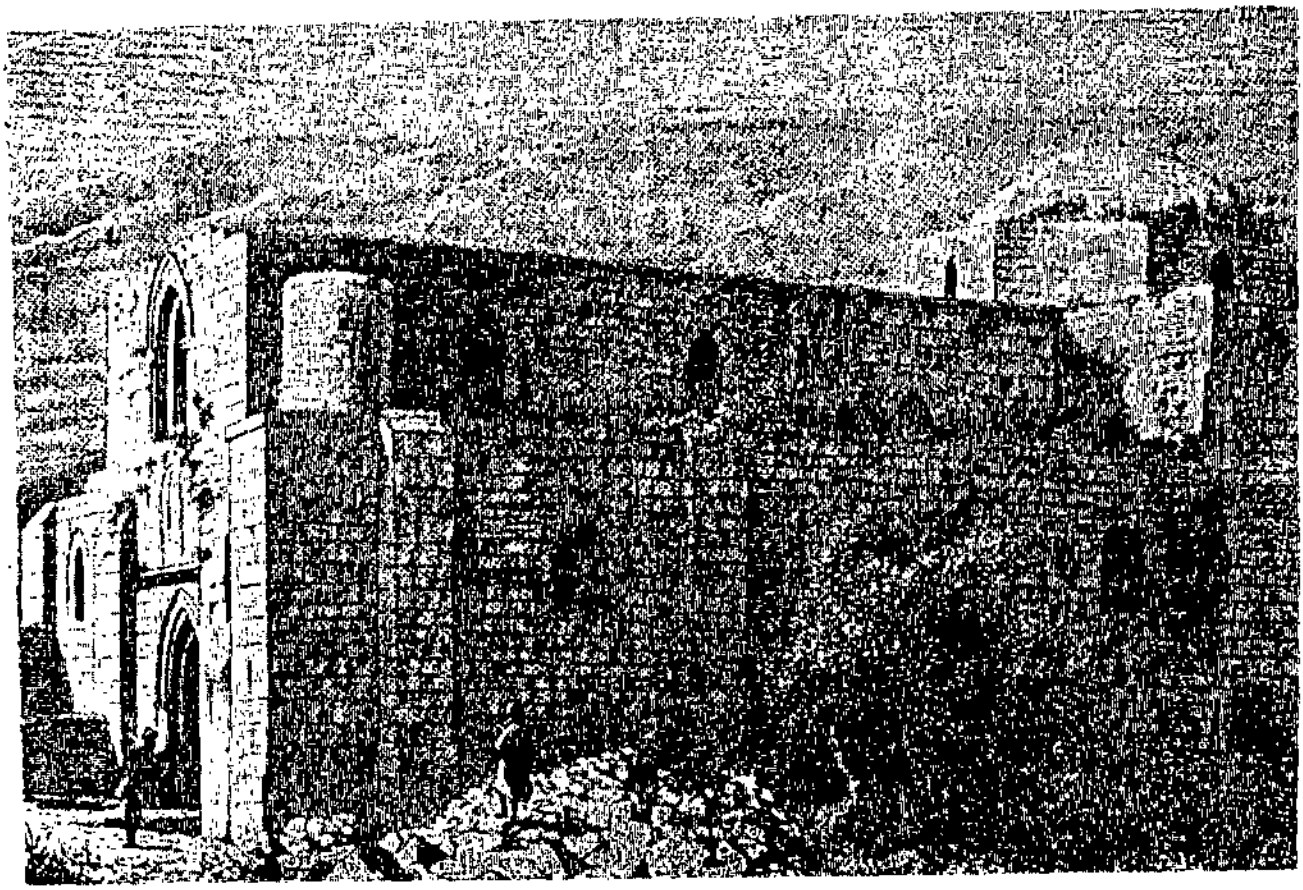

المدرسة الصلاحية سنة ١٨٦٠ ، والمئذنة التي لم تتم [١]

(١) معاهد العلم في بيت المقدس ، د. كامل العسلي ، ص ٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

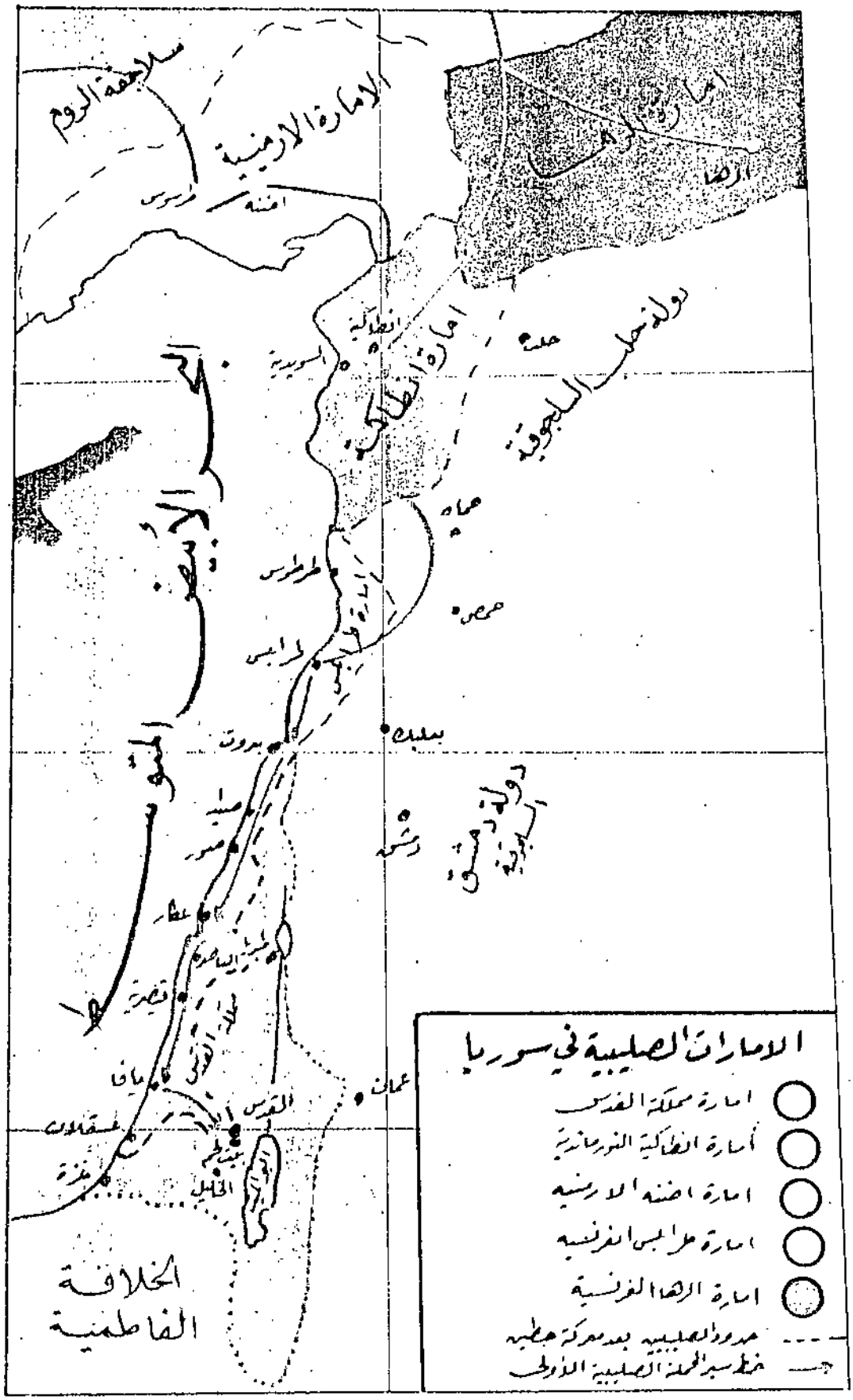

الأطلس التاريخي للعالمين العربي والإسلامي، عدنان عطار،ط١٠ ،منشورات سعدالدين دمشق ، القاهرة، ص٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

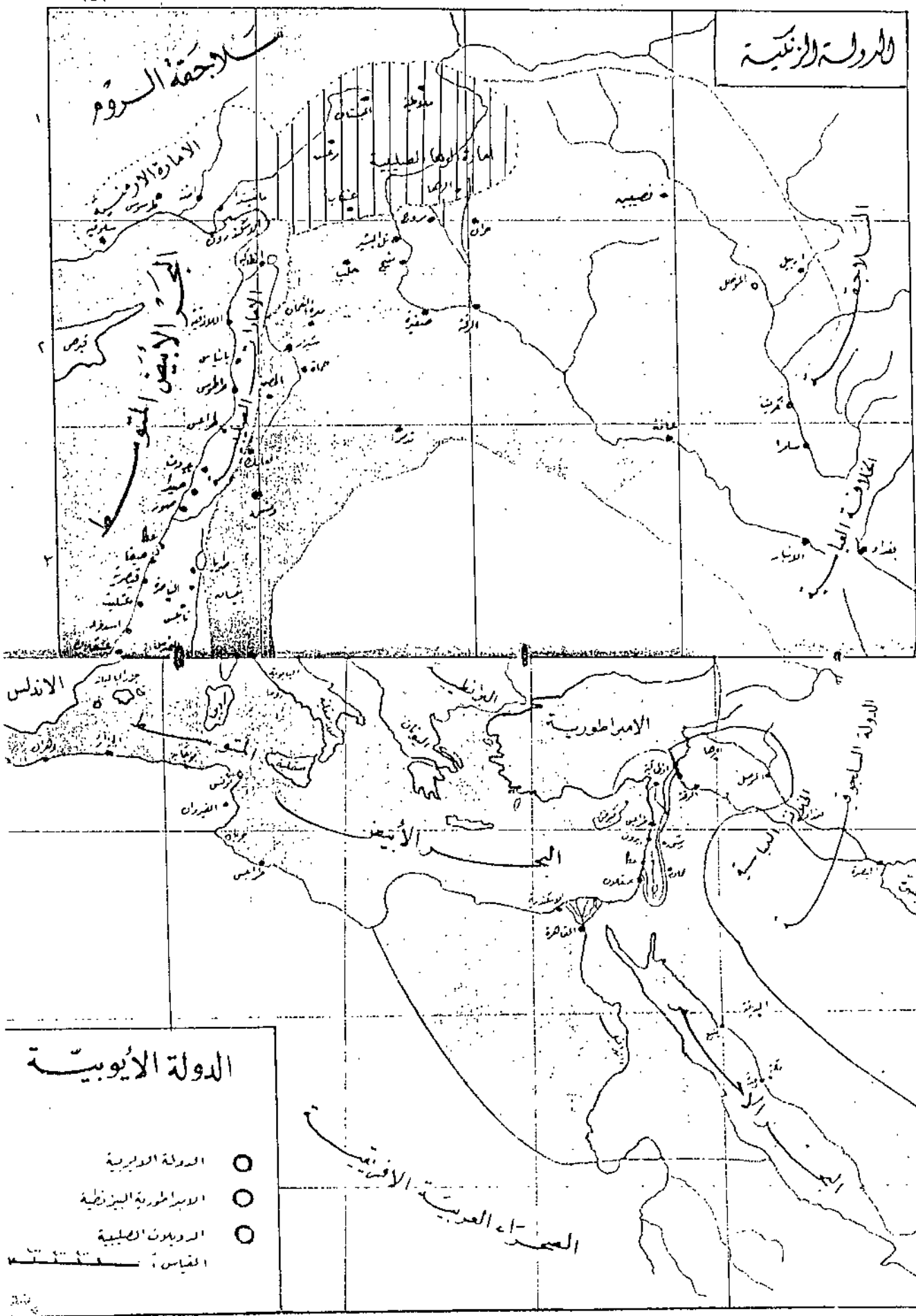

الأطلس التاريخي ، عدنان عطار ، ص ٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأطلس التاريخي للعالمين العربي والإسلامي، عدنان عطار،ط.١٠ ،منشورات سعدالدين دمشق ، القاهرة، ص٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٤٦٨٤٥

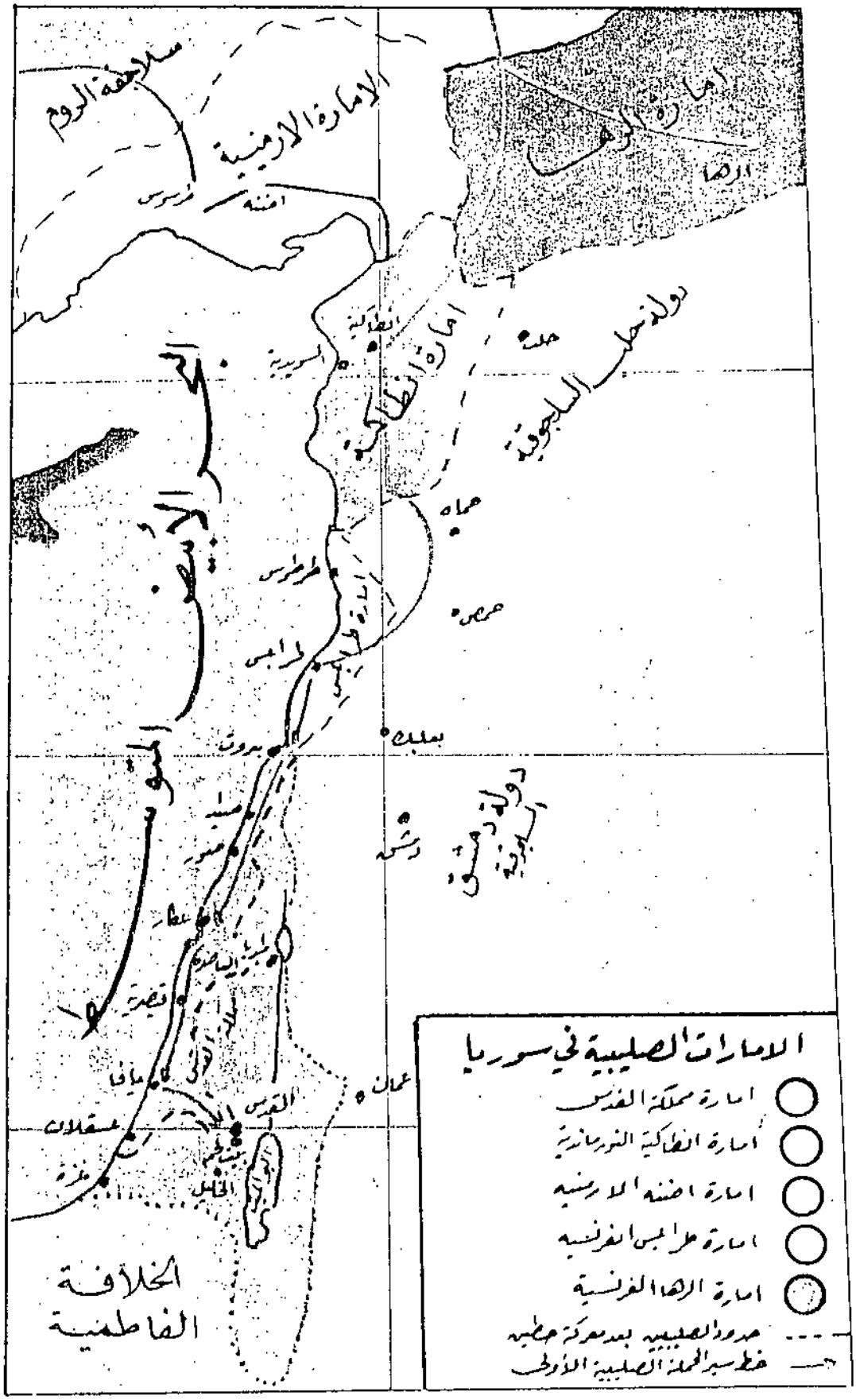

الأطلس التاريخي ، عدنان عطار ، ص ٤٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

Baha' al-Din Ibn Shaddad, The Historian, The Literate

Wafa' Saeed Shahwan

Supervised by

Prof. Dr. Mahmoud Ibrahim

The thesis revealed information about Baha' al-Din Ibn Shaddad who lived during the Ayyoubid era and was associated with the renowned Moslem leader, Saladin. He played a prominant role after Saladin's death.

The thesis consists of three chapters and a historical preface. In the preface I wrote about education, since Baha' al-Din was, in a way, a teacher. This is why I wrote about schools, libraries and mosques and the role of learned men, Jurists and Judges.

In the first chapter I wrote a complete biography of the man. I mentioned his birth's date, his education, teachers and pupils. I also wrote about his prominent place, his movements and relationships, especially his relationship with Saladin, and ended by mentioning the date of his death.

In the second chapter, I wrote about the books of Baha' al-Din and talked about their contents and value, especially about his book "Al-Nawadir al-Sultania Wal-Mahasin al-Yousifiyya". The book acquaints us with the author as a historian and a man of letters.

In the third chapter I discussed the artistic elements in his writings and how he was influenced by the Koran and the Traditions of the Prophet. These characterised his style.

In the end I summed up in the conclusion the results which depicted the image of Saladin and appended the thesis with a map picturing the towns which were occupied by the Crusaders.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit